دار
الخلفاء الراشدين
للنشر والتوزيع

مختصر
العقيدة الإسلامية

تأليف
دكتور
مصطفى حلمي
أستاذ العقيدة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
رئيس قسم العقيدة الإسلامية بكلية دار العلوم - سابقًا
الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية





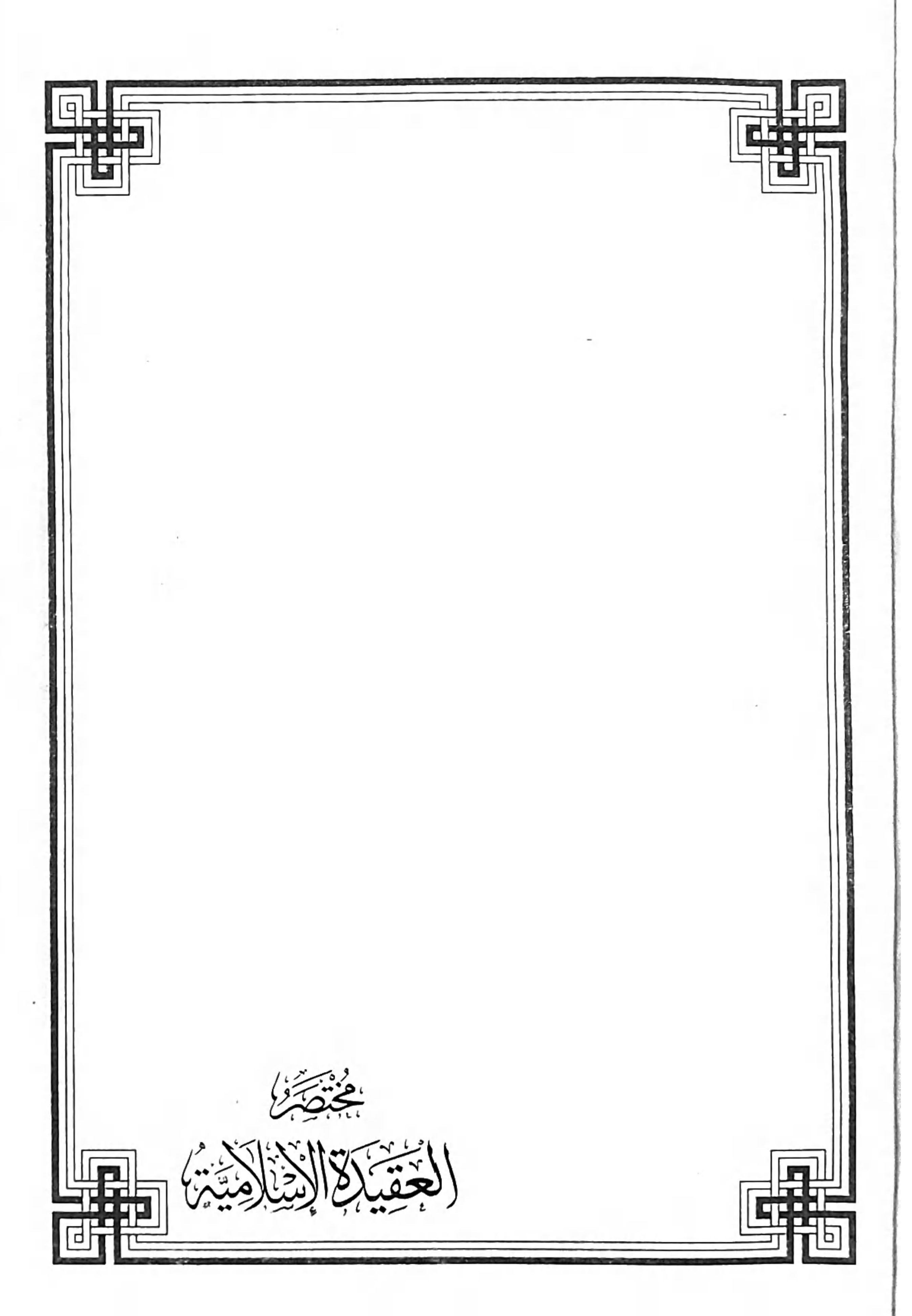
دار الخلفاء الراشدين
للنشر والتوزيع

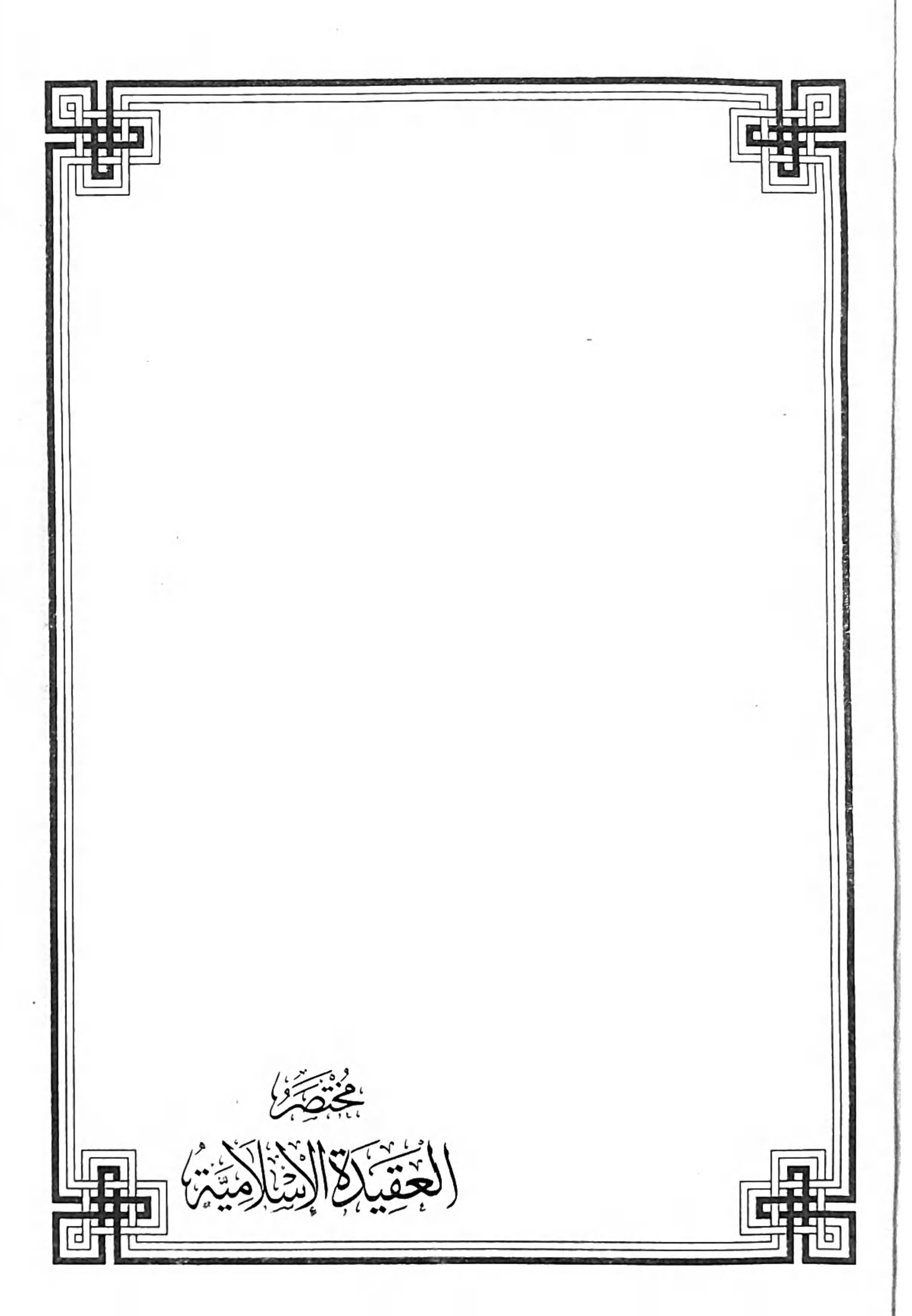
مختصر العقيدة الإسلامية

تأليف
دكتور
مصطفى حلمي
أستاذ العقيدة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة
رئيس قسم العقيدة الإسلامية بكلية دار العلوم - سابقًا
الحائز على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية






مختصر
العقيدة الإسلامية

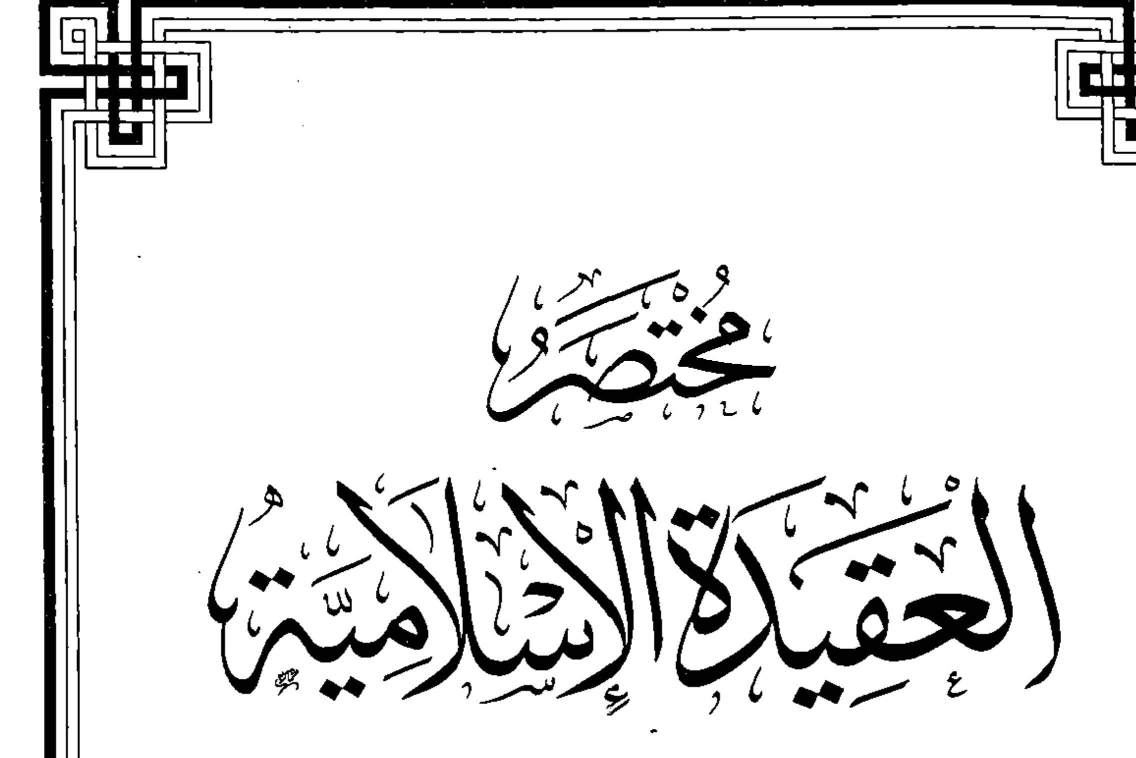

مختصر
العقيدة الإسلامية



اسم الكتاب	مدخل إلى العقيدة الإسلامية
اسم المؤلف	د. مصطفى حلمي
رقم الطبعة	الأولى
سنة الطبع	١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م
عدد الصفحات	١٥٢ صفحة
المقاس	١٧×٢٤
رقم الإيداع	٢٠٢٢/٤٥٧٨م
الترقيم الدولي	I.S.B.N: 978-977-6900-40-0

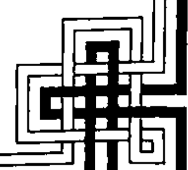


شارع ٤٩٤- كاستنيا - أرض شاكوس متفرع من شارع مصطفى كامل
شارع عمر متفرع من شارع أبي سليمان أمام مسجد الخلفاء الراشدين
شارع إبراهيم الشريف - كفر عبده - بجوار مسجد الفتح الإسلامي
شارع ابو رديس - متفرع من جمال عبد الناصر - سيدي بشر - أمام قاعة جمعية الدعاة
٠١٠٠٥٠١٣١٥١ ٠١١٢٦٥٠٠٦٩٦ ٠١٠٩٤٥٥٥١٥٧ ٠١١١٨١٧١٩٣١
راسلونا على صفحتنا على فيسبوك «دار الخلفاء الراشدين»



تأليف

د/ مصطفى حلمي

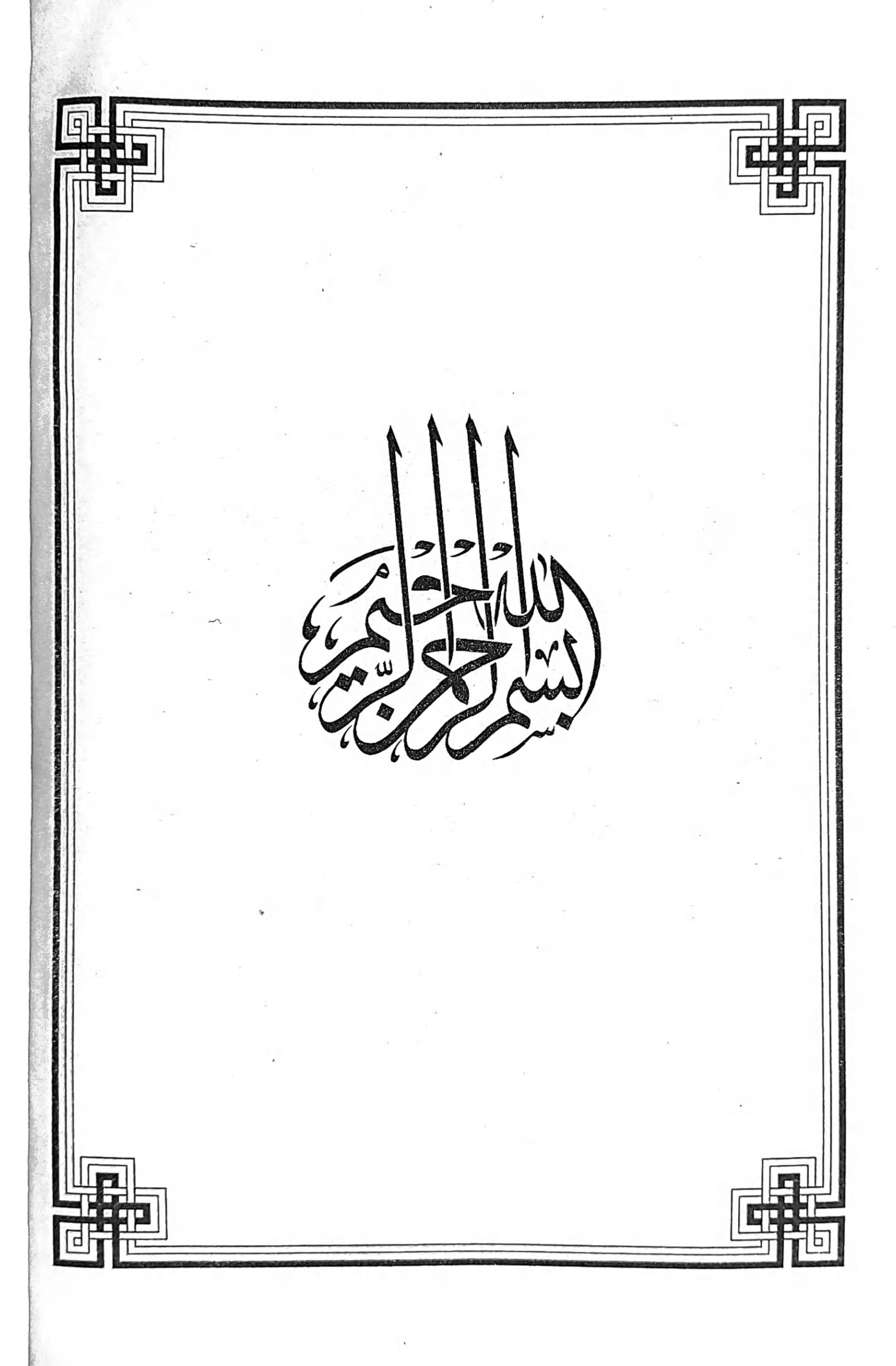



توزيع

دار الخلفاء الراشدين — دار الفتح الإسلامي

- شارع ٤٩٤- كاستنيا - أرض شاكوس متفرع من شارع مصطفى كامل
- شارع عمر متفرع من شارع أبي سليمان أمام مسجد الخلفاء الراشدين
- شارع إبراهيم الشريف - كفر عبده - بجوار مسجد الفتح الإسلامي
- شارع أبو رديس - متفرع من جمال عبد الناصر - سيدي بشر - أمام قاعة جمعية الدعاة

٠١٠٠٥٠١٣١٥١ - ٠١١٢٦٥٠٠٦٩٦ - ٠١٠٩٤٥٥٥٤٥٧ - ٠١١١٨١٧١٩٣١


بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ومن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فبناءً على تكليف قسم الفلسفة الإسلامية، قمت بتأليف كتاب عن (العقيدة الإسلامية) لطلاب الفرقة الثانية بكلية دار العلوم، يتناسب مع مستواهم العلمي، فعرضت لمسائل الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين والقدر، فضلًا عن إثبات نبوة النبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأدلة العقلية والعلمية.

واقتضى البحث اتباع المنهج التاريخي؛ فعرضت لمنهج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في استدلالهم على العقائد، مع التعريف أيضًا -باختصار- بطرق البراهين القرآنية، ثم اهتممت بصياغة العقيدة السلفية وفق قواعد عامة وشرح معالمها في العصر الحديث، بالإضافة إلى عرض نموذج من صفوة عقيدة أهل السنة والجماعة.

وألحقت الكتاب بقائمة بأسماء المصادر المتصلة بقضايا العقيدة الإسلامية لمن يرغب من الطلاب في الإطلاع عليها، وتشجيعًا لهم على تحصيل ما أمكن منها.

وأسأل الله تعالى أن يجعل من هذا الكتاب مدخلًا لتحصيل المزيد من قضايا العقيدة الإسلامية التي تكفل السعادة في الدنيا والآخرة -بمشيئة الله تعالى.

وعلى الله التوفيق...

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين...

د/ مصطفى حلمي

١٩ رجب ١٤٣٨هـ

١٦ إبريل ٢٠١٧م

منهج البحث وقضايا الكتاب:

ظلت أغلب الدراسات المعاصرة في الإسلاميات التي تحوم حول العقيدة تعتمد عل كتب المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة في الغالب، فلا تكاد تعثر على دراسة على للمسلمين الأوائل ومناهجهم الشرعية العقلية في الاستدلال على أصول الدين.

ونلحظ أن أغلب البحوث المعاصرة تعتمد على آراء المستشرقين الذين يهتمون عادةً بالفرق المنشقة عن أهل السنة والجماعة، والاهتمام بإيجاد الصلات بين معتقدات الفرق والمصادر الخارجية من عقائد وديانات وفلسفات يونانية وفارسية ونحوها.

كثيرًا ما تتضخم أبحاثهم بالمسائل الخلافية والعناية بالفرق المنشقة عن الجماعة، وتصور التاريخ الإسلامي من خلال الخلافات والانشقاقات، فتختفي الحقيقة تحت أكوام من الجدل والخلاف، بحيث يصعب على القارئ التمييز بين الحق والباطل.

ومثل هذا المنهج -فضلًا عن النتائج المغرضة التي يراد الوصول إليها- فإنه يتجاهل حقيقة بارزة لا يمكن إخفاؤها؛ ألا وهي أن آراء الفرق المنشقة قد حوصرت منذ ظهورها بواسطة علماء الحديث والسنة، ورفضتها الغالبية من أهل السنة والجماعة التي ظلت متمسكة بالعقيدة الصحيحة المتلقاة بالقبول والفهم منذ عصر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته.

لهذا، رأينا -مستعينين بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- إجلاء المنهج المتبع بواسطة علماء الإسلام من الفقهاء والمحدثين. وكانت أولى خطواتنا البدء بعصر الصحابة؛ لاستقراء الاتجاهات الدالَّة على ألوان من النظر العقلي قبل أن ينشق الصف الإسلامي إلى فرق ومذاهب، لنحاول أن نقف على تفسيرات أصحاب الصدر الأول للآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتصلة بما سمَّاه المتكلمون بـ(أصول الدين)، والتي لم توضع في الصيغ الكلامية

أو الأنساق الفلسفية خلال العصور المبكرة التي تتحدث عنها؛ ولكن الذي حدث هو أنه كلما تفتقت مسألة، أو حدث انشقاق طارئ مستحدث، قام لها مَنْ يتصدى بالتفسير والتوضيح، أو النهي والزجر إذا كان من قبيل البدع المنهي عنها.

ولا شك أن الأدلة تدعم اتجاهنا في اتخاذ عصر الصحابة نقطة البدء في البحث؛ لأن دراسة التاريخ الإسلامي ترشدنا إلى معرفة أسبقية الأوائل في العلم والعمل، في العقيدة والسلوك. وسنتخذ هذا المنهج في البحث لمحاولة شَجْبِ النتائج التي تَوَصَّلَ إليها أمثالُ جولد تسهير وغيره من المستشرقين الذين يطبقون على الإسلام -في العقائد والعبادات- آثار فكرة التطور؛ فيتصورون أنه بدأ بسيطًا ثم تطوّر على يد المسلمين!! فكانت أكبر زلاتهم!!

ولمّا كانوا غير مُسَلّمين معنا بالدليل القطعي الثابت في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ فإن استقراء الأحداث بأناة وصبر وجهد -مع توافر الصدق وحسن الطوية- لَيُثبت أن (الإسلام في حياة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اكتمل في عقائده وعباداته وأخلاقه وأحكامه ونصوصه وقواعده، وأن الرسول -صلوات الله عليه- انتقل إلى الرفيق الأعلى وترك الإسلام على هذا النحو، وأن المسلمين من القرن الأول إلى يوم الناس هذا يعتبرون أي تزيُّد على الدين بدعةً تحارب، ويرفضون من أي مخلوق ومن أي جماعة أن يضعوا في هذا الدين جديدًا)(١).

وسنحاول على قدر الاستطاعة، وبقدر ما تسمح به هذه الدراسة، الالتفات إلى عصر الصحابة والتابعين؛ تنقيبًا عن فهمهم للعقيدة، وتحقيقًا لرسالتهم.

---

(١) محمد الغزالي، دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، ص(٧٨).

هذا، مع التقيد في مسائل العقيدة وترتيبها على نسق الترتيب النبوي لأصول الإيمان السِّتَّة المذكورة في حديث جبريل المشهور.

وسنعرض لقضايا الكتاب على النحو التالي:

* التعريف بالمصطلحات.
* مكانة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
* معالم منهجهم في الاستدلال على العقيدة.
* أصول الدين في عصرهم.
* حاجتنا إلى معرفة العقيدة الإسلامية.
* وجوب معرفة الله تعالى وصفاته.
* التوحيد.
* الملائكة.
* الرسل والأنبياء.
* صفة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل مبعثه، وما أُعطي من الفضل.
* المدخل العقلي لإثبات صدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
* الإيمان باليوم الآخر.
* الإنسان: أصله، ودوره، ومصيره.
* الإيمان بالقدر.
* طرق البراهين القرآنية.
* قواعد المنهج السلفي في أصول الدين.
* مفهوم السلفية في العصر الحديث.
* الوحي الإلهي هو المنقذ لبني آدم.
* نموذج من صفوة عقيدة أهل السنة والجماعة.

فصل

توطئة

(التعريف بالمصطلحات العقدية)

١- العقيدة في اللغة:

مأخوذة من العَقْد، وهو الشد والربط والإيثاق والثبوت والإحكام.

وفي المصطلَح: الإيمان الجازم بالله تعالى، وبما يجب له من التوحيد، والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وبما يتفرع عن هذه الأصول ويلحق بها مما هو من أصول الدين.

وقد أطلق كثير من السلف على العقيدة اسم (السُّنَّة)؛ وذلك لتمييزها عن عقائد ومقولات الفرق المخالفة؛ لأن العقيدة الصحيحة -وهي عقيدة أهل السنة والجماعة- مستمدة من سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي هي مبيِّنة للقرآن الكريم[١].

وقد أطلق بعض العلماء على العقيدة اسم (أصول الدين)؛ ذلك أن مِلَّة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنقسم إلى اعتقادات وعمليات، والمراد بالعمليات: علم الشرائع والأحكام المتعلقة بكيفية العمل، كأحكام الصلاة والزكاة والبيوع وغيرها، وتُسَمَّى (فرعية) أو (فروع)، فهي كالفرع لعلم العقيدة؛ لأن العقيدة هي أشرف الطاعات، ولأن صحتها شرط في قبول العبادات العملية -وعلى أشرف العلوم-، فإذا فسدت العقيدة لم تُقبَل العبادة، وبطل أجرها، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥].

---

(١) د. عبد الله بن عبد العزيز الجبرين، «تهذيبُ تسهيل العقيدة الإسلامية» (ص١) الأستاذ بكلية المعلمين بالرياض، ط(١)، ١٤٢٥هـ.

هذا، كما أطلق بعض العلماء على العقيدة اسم (الفقه الأكبر)؛ وذلك لأن العقيدة هي أصل الدين، والفقه العملي -الذي يُسمى (الفقه الأصغر)- فروعه، كما سبق بيانه.

وقد أَلَّفَ الإمام أبو حنيفة رسالة في العقيدة أسماها (الفقه الأكبر)[(١)].

٢- أهل السنة والجماعة:

هم أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم القيامة، وهم: المتمسكون بالعقيدة الصحيحة التي كان عليها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتفق عليها أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ الخالية من شوائب البدع.

وقد سُموا (أهل السُّنَّة) لعلمهم بمقتضى سُنَّة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المبينة للقرآن، عملًا بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ**»، فهم يعلمون أن هدى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير الهدي، فقدموه على هدي مَنْ سواه.

وسُموا (الجماعة) لأنهم اجتمعوا على اتباع سُنَّة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وما أجمع عليه سلف هذه الأمة؛ فهم قد اجتمعوا على الحق، وعلى عقيدة الإسلام الخالية من الشوائب، وأيضًا فقد سَمَّى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفرقة الناجية تلك المتبعّة لسنَّته وطريقة أصحابه -وهم أهل السنة والجماعة- سماهم (الجماعة)[(٢)].

وقد أطلق بعض العلماء على أهل السُّنَّة اسم (أصحاب الحديث) أو (أهل الحديث)؛ وذلك لأنهم اهتموا بنقل ما رُوي عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحاديث، وتمييز الصحيح

---

(١) «تهذيبُ تسهيل العقيدة الإسلامية» (ص٢).

(٢) وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفرقة الناجية: «**مَن كان على ما أنا عليه وأصحابي**»، ص(٣)، وفي رواية قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ستفترق هذه الأمة على اثنتين وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة**»، مجموعة الرسائل الكبرى لابن تيمية، ص(٢٧٤)، جـ(١)، ط. صبيح، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

منها من الضعيف، واتبعوا ما جاءت به من العقائد والأحكام. و(الحديث) و(السُّنَّة) لفظان معناهما متقارب[١].

ويقول الإمام اللالكائي (ت٤١٨هـ) في وصفه أصحاب الحديث -أنهم سُموا بهذا الاسم-: «لاختصاصهم برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واتباعهم لقوله، وطول ملازمتهم له، وتحملهم علمه، وحفظهم أنفاسَه وأفعالَه، فأخذوا الإسلام عنه مباشرةً، وشرائعه مشاهدةً، وأحكامه معاينةً من غير واسطةٍ ولا سفيرٍ بينهم وبينه واصلةٍ، فجاولوها عيانًا، وحفظوا عنه شِفاهًا، وتلقنوه مِنْ فِيهِ رَطْبًا...»، إلى أن يقول: «فهذا دين أُخِذ أوله عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم نقلها العدول عن العدول، والجماعة عن الجماعة، أَخْذَ كَفٍّ بكف، وتَمَسُّكَ خَلَفٍ بِسَلَفٍ، كالحروف يتلو بعضها بعضًا»[٢].

٣- السلف:

السلف في اللغة: الجماعة المتقدمون، يُقال: سَلَفَ يسلُف؛ أي: مضى، وسلف الإنسان: آباؤه الأقدمون.

وفي الاصطلاح: هم أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومَن تبعهم وسار على طريقهم من أئمة الدين من أهل القرون الثلاثة المفضلة[٣].

لذلك فإن دراسة العقيدة الإسلامية وفق المنهج العلمي المتفق عليه، تقتضي بيان منهج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهذا ما سنعرضه في الصفحات القادمة.

---

(١) «تهذيب تسهيل العقيدة الإسلامية» (ص٥).

(٢) أبو القاسم عبد الله بن الحسن بن المنصور الطبري اللالكائي، «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم»، (ص٢٣)، جـ(١)، تحقيق د./ أحمد سعد حمدان، دار طيبة بالرياض، بدون تاريخ.

(٣) «تهذيب تسهيل العقيدة الإسلامية» (ص٥، ٦).

فصل

مكانة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

الصحابي: من اجتمع بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤمنًا به، ومات على ذلك. والصحابة -رضوان الله عليهم- خير الناس بعد الأنبياء، وأفضل قرون الأمة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خير الناس قرني**»، وقال أيضًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خير أمتي قرني**» [متفق عليهما].

وهم كلهم عدول؛ لأن الله -سبحانه- قد اختارهم لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وزكَّاهم، ورضي عنهم، وتاب عليهم، ووصفهم بأكرم الأوصاف، ووعدهم خير عِدَة، فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح:٢٩][1].

والواجب تجاه الصحابة على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم:

أولًا- محبتهم، وموالاتهم، والترضِّي عنهم، والاستغفار لهم، والثناء عليهم آحادًا وجماعاتٍ، قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١]. وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر:١٠].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**آية الإيمان حُبُّ الأنصار، وآية النِّفاق بُغضُ الأنصار**» [رواه البخاري]. وقال لعليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لا يحبك إلا مؤمنٌ، ولا يبغضك إلا منافقٌ**» [رواه مسلم].

---

(١) د/ أحمد بن عبد الرحمن القاضي، «العقيدة السلفية من الكتاب العزيز والسُّنَّة المطهرة»، (ص٨٠)، من إصدارات مجلة البيان، الرياض، ط.٤، ١٤٣٣هـ.

ثانيًا- سلامة القلوب والألسنة لهم من الغِل وسوء الظن، ومن السب واللعن. قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تسبوا أصحابي؛ فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُد ذهبًا ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه**» [متفق عليه].

ثالثًا- الكَفُّ عما شَجَر بين بعضهم، وإحسان الظن بهم، والاعتذار لهم بأنهم مجتهدون؛ إما مصيبون فلهم أجران، أو مخطئون فلهم أجر واحد، ولهم من السوابق والمناقب والحسنات العظيمة ما يوجب مغفرة الذنوب، إنْ كان قد صدر منهم ذنب.

رابعًا- البراءة من طريقة الشيعة، أهل الغلوِّ في أهل البيت والبغض والسب لعامة الصحابة[١].

معالم منهج الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ:

نزل القرآن الكريم مُبينًا العقائد الصحيحة، ومخاطبًا العربَ والأمم جميعًا، موجهًا إليهم الكلام الإلهي الأخير في الأُلوهية والنبوة والمعاد، ومتضمنًا الأدلة العقلية المثبتة لها؛ فإن الحق واحدٌ لا يخرج عما جاءت به الرسل، وهو الموافق لصريح العقل وفطرة الله التي فطر عباده عليها[٢].

وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية؛ فإن الرسل -صلى الله عليهم وسلم- بينوا بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه، كما بينوا للناس العقليات التي يحتاجون إليها، كما ضرب الله تعالى في القرآن من كل مثل؛ وهذا هو الصراط المستقيم[٣].

---

(١) «العقيدة السلفية من الكتاب العزيز والسُّنَّة المطهرة»، (ص٨٤، ٨٥).
(٢) «منهاج السنَّة»، لابن تيمية، جـ(٢)، ص(٦٩).
(٣) السابق(ص١٠٧).

المنهج الإلهي الوارد بالقرآن إذن يتصل برسالات الرسل والأنبياء من قبل، ويفصل بين الناس فيما كانوا فيه يختلفون، ولم يكن هناك اختلاف أشد من الاختلاف حول قضايا الألوهية والخلق والبعث والحساب والعقاب، وكانت محل نزاع بين الملل والنحل من أهل الكتاب والفلاسفة وغيرهم.

كذلك كانت الحكمة -وهي السنة النبوية- مصدرًا ثانيًا لحسم هذه القضايا ووضع الأمور في نصابها، بحيث لم يصبح هناك أي لبس أو غموض. والدليل على ذلك أن الصحابة لم يوجهوا بصددها إلا أسئلة معدودة؛ لأن شمس النبوة كانت ساطعة، وكان الوحي ينزل بين أظهرهم يخاطبهم بأدلة العقول، وينير سبل الفهم، فتنقشع سُحُب اللبس والغموض.

ومضت العصور الأولى امتدادًا لعصر النبوة، مؤمنة بعقائدها، مستمرة في نشر رسالتها ودعوة سكان العالم إلى الحق والخير والسعادة في دنياهم وأخراهم، ولم تكن فتوحاتهم فتوحَ استعمار واستبداد بالشعوب، بل كانت تحمل مشاعل الهداية وتنشر العدل أينما حلَّت بالشعوب المقهورة بسلطان الرومان والفرس، ومن ثَمَّ فإنها فتوح (تحرير).

وكان منهج الصحابة والتابعين ومن سلك سبيلهم في أصول التوحيد والإيمان -كما يذكر ابن تيمية- هو طلب علم ما أنزل الله تعالى على رسوله ﷺ من الكتاب والحكمة، ثم بعد معرفة ما بينه الرسول ﷺ تأتي الخطوة التالية؛ أي: يُنظر في أقوال العلماء والنظار وما أرادوه بها، فتُعْرَض على الكتاب والسنة؛ لأنهما المحك في قبول أو استبعاد أية آراء أو أفكار.

هذا مع العلم بأن القاعدة التي يقررها شيخ الإسلام -وسنعود إليها عند الحديث عنه مرة أخرى- تتلخص في أن العقل الصريح دائمًا موافق للرسول ﷺ لا يخالفه قط؛ فإن الله تعالى أنزل (الميزان) العقلي مع الكتاب: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ

﴿وَالْمِيزَانَ﴾ [الشورى:١٧]، ولكن قد تقصر عقول الناس عن معرفة تفصيل ما جاء به، فيأتيهم الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما عجزوا عن معرفته وحاروا فيه، لا بما يعملون بعقولهم بطلانه.

وعلى ذلك، فإن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم تخبر بمحارات العقول -أي: بما يحير العقول بما يخبرون به من عالم الغيب-، لا بمحالات العقول؛ أي: التي ترى العقول استحالة وقوعه.

وإذا كان هذا هو المنهج الصحيح، فإن المناهج المخالفة -سواء الفلسفة أو الكلام المبتدع- تعكس الوضع؛ فتأتي بالآراء والتأويلات، ثم تجعل ما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تبعًا لها، بطريقة تحريف ألفاظه أو تأويلها وفقًا لأقوالهم وآرائهم[1].

على أية حال، فقد كان جيل الصحابة والتابعين أكثر عِلمًا وفهمًا للإسلام وعقائده ونظمه وتعاليمه من الأجيال التالية، ثم حدث الاختلاط مع الأمم الأخرى وفقًا لسنن الاجتماع البشري، ودخل أهل الحضارات من بلاد الفرس والروم والهند وغيرها في دين الإسلام.

أما طريقتهم في الاستدلال على العقيدة:

فإنه قد ثبت عندهم -كما يقول الإمام الخطابي- أمر التوحيد من وجوه:

أحدها- ثبوت النبوة بالمعجزات التي أوردها نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من كتابٍ أعياهم أمره، وقد تحداهم به وبسورة مثله، وهم العرب الفصحاء؛ فعجزوا.

الثاني- ما شاهدوه من معجزات الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المشهورة عنه، الناقضة للعادات، كتسبيح الحصا في كفه، وحنين الجدع لمفارقته، ورجف الجبل تحته، وسكونه لما ضربه برجله، وانجذاب الشجرة بأغصانها وعروقها إليه، وسجود البعير، ونبوع الماء

(١) ابن تيمية، «مجموع فتاوى شيخ الإسلام»، جـ(١٧)، ص(٤٤٣-٤٤٤)، ط الرياض.

من بين أصابعه حتى توضأ بشر كثير، وربو الطعام اليسير بتبريكه فيه حتى أكل منه عدد جَمٌّ، وإخبار الذراع إياه بأنها مسمومة، وأمور كثيرة سواها...

فلما صحت عندهم نبوته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وجب تصديقه عَلَيْهِٱلسَّلَامُ على ما أنبأهم عنه من غيوب، ودعاهم إليه من أمر وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ وأمر صفاته، وإلى ما وجدوه في أنفسهم وفي سائر المصنوعات من آثار الصنعة، كقوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢١][١].

وانتهى إلى القول بأن طريقة السلف الاكتفاء فيما عندهم من علم الكتاب والسنة غنًى عما سواهما، ثم خالفهم أهل التعمق من المتكلمين حتى تكلموا في الروح، والقدر، والتعديل والتجوير، والنفس والعقل وما بينهما، وأشياء أخرى لا تعنيهم، كالكلام في الجزء، والطفرة (وما أشبه ذلك من الأمور التي لا طائل لها، ولا فائدة فيها)[٢].

ونَبَّه الخطابي إلى أن الأئمة الماضين لم يتركوا هذا النمط من الكلام عجزًا عنه، فقد كانوا ذوي عقول وافرة، وإنما تركوه تخوفًا من الفتنة.

ويقول الخطابي: «إنَّا لا ننكر أدلة العقول والتوصل بها إلى المعارف، ولكنا لا نذهب في استعمالها إلى الطريقة التي سلكتموها في الاستدلال بالأعراض وتعلقها بالجواهر، وهي طريقة منعرجة لا يُؤْمَن العنتُ على راكبها والانقطاع على سالكها»[٣].

ثم جاء ابن تيمية بعد الخطابي بعدة قرون ليرجح طريقة الأئمة الأوائل ويوضحها ويفصلها:

---

(١) باختصار، درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، جـ(٧)، ص(٢٩٦-٢٩٩).

(٢) السابق، (ص٢٨٦، ٢٨٩، ٣٢٩)، ويعارضه ابن تيمية في قوله: «تكلموا في الروح والقدر والتعديل والتجوير والعقل والنفس»، فقال: «فقد يُظن أن الكلام في هذا مذموم مطلقًا، وليس كذلك؛ بل في ذلك وغيره بالحق النافع لا يذم، وإنما يذم الكلام الباطل والكلام بلا علم». نفسه ص(٣٣٠).

(٣) نفسه(ص٢٩٣)

فالطريق الشرعي هو النظر فيما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاستدلال بأدلته، والعمل بموجبها؛ فلابد من علم بما جاء به وعمل به، لا يكفي أحدهما.

وهذا الطريق متضمن للأدلة العقلية والبراهين اليقينية[١]؛ فإن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيَّن بالبراهين العقلية ما يتوقف السمع عليه، والرسل بينوا للناس العقليات التي يحتاجون إليها، كما ضرب الله في القرآن من كل مثل، وهذا هو الصراط المستقيم.

وأما الطريقان المبتدعان:

فأحدهما- طريق أهل الكلام البدعي، ويزعمون أن العلم بمجرد النظر.

والثاني- طريق أهل الرياضة والتصوف، يزعمون أن تصفية النفس نقيض العلوم بلا تعلم.

وكلا الفريقين غلط؛ بل لتزكية النفس والعمل بالعلم وتقوى الله تأثير عظيم في حصول العلم[٢].

ومن فضائل الصحابة أنهم جمعوا بين العلم بالله تعالى وتقواه وتزكية النفس، فاستحقوا الإمامة بعد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. يقول ابن تيمية: «إن أول هذه الأمة قاموا بالدين تصديقًا وعلمًا وعملًا وتبليغًا، فالطعن فيهم طعن في الدين»[٣].

فأحق الناس بخلافة نبوته أقربهم إلى الأمر بما يأمر به والنهي عما نهى عنه، ولا يُطاع أمره طاعةً ظاهرةً غالبةً إلا بقدرةٍ، وسلطانٍ يوجب الطاعة، فالدين كله طاعة لله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[٤].

---

(١) ويقول ابن تيمية في كتابه النبوات: «جميع الأدلة عقلية، بمعنى أن العقل إذا تصورها علم أنها تدل، فإن الدليل هو ما يكون النظر الصحيح فيه مفضيًا إلى العلم بالمدلول عليه»، ص(١٢٩)، المطبعة السلفية.

(٢) منهاج السنة، جـ(٣)، ص(١٠٧). ويضيف إلى ذلك بأن السمع المحض لا يدل وحده.

(٣) السابق(ج١)، ص(٤). لابد من العقل، وهذا صحيح؛ فإن العقل شرط في جميع العلوم التي تختص بالعقلاء (ص١٣٠).

(٤) «منهاج السنة» (ج١)، (ص١٩).

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢].

وخلاصة القول، إنهم يمثلون صفوة الأمة الإسلامية التي تتخذهم قادة وأعلامًا في ميادين العقائد والعبادات والشرائع والمبادئ الأخلاقية، وتلك عادة الأمم والشعوب والحضارات؛ فإن الحضارة المعاصرة -مثلًا- لا تخجل من إعادة إحياء تراثها السلفي منذ أفلاطون وأرسطو، وتتبع آراء فلاسفتها وقادتها الدينيين على مدى تاريخها كأوغسطين، وتوما الأكويني، ومارتن لوثر، وكالفن، هذا الاتباع الذي يحافظ على الهوية، فَلِمَ تُلام أجيال المسلمين الحريصين على منهج الاتباع ورميهم بالحجر على العقل، وتعطيل القدرة على الإبداع؟!

إن الخلط هنا واضح بين اتباع بأدلة، بطريقة غاية في الدقة والالتزام العلمي المنهجي -وبخاصةً عند علماء الحديث؛ للحرص التام على الوحي الإلهي-، وبين إعمال العقل في العلوم التجريبية، وكان علماء الإسلام هم أساتذة المنهج التجريبي قبل بيكون ومل.

ويضاف إلى ذلك أن الاتباع بالأدلة شيء، والتقليد الأعمى بغير دليل شيء آخر. والآيات القرآنية صريحة في ضرورة النهي عن تقليد الآباء، منها قوله تعالى في سورة الأنبياء: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٣]، -أي: التماثيل- ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء:٥٤]، قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان:٢١].

فصل

دور أهل القرون الأولى من الصحابة والتابعين وتابعيهم في تأسيس الحضارة الإسلامية

ونمهد بذلك بالبدء بحديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث شهد لهم بالفضيلة بقوله: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» [الحديث أخرجه البخاري، وأخرجه مسلم في كتاب «فضائل الصحابة ثم الذين يلونهم»].

وقال في «المدخل» لابن الحاج: «وانظروا إلى حكمة الشارع صلوات الله عليه وسلامه في هذه القرون كيف خصهم بالفضيلة دون غيرهم! وإن كان غيرهم من القرون في كثير منهم البركة والخير، ولكن اختصت تلك القرون بمنزلة لا يوارثهم فيها غيرهم، وهي أن الله عَزَّوَجَلَّ خصّهم لإقامة دينه وإعلاء كلمته.

فالقرن الأول خصهم الله تعالى بخصوصية لا سبيل لأحد أن يلحق غبار أحدهم فضلًا عن عمله؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قد خصّهم برؤية نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومشاهدته ونزول القرآن عليه غضًّا طريًّا يتلقونه من في النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين يتلقاه من في جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وخصَّهم بالقتال بين يدي نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونصره وحمايته، وإذلال الكفر وإخماده، ورفع منار الإسلام وإعلانه، وحِفْظِهِم آي القرآن الذي كان ينزل نجومًا نجومًا، فأَهَّلَهُم الله تعالى لحفظه حتى لم يضع منه حرف واحد، فجمعوه، ويسره لمن بعدهم، وفتحوا البلاد والأقاليم للمسلمين، ومهدوها لهم، وحفظوا أحاديث نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في صدورهم، وأثبتوها على ما ينبغي من عدم اللحن والغلط والسهو والغفلة.

ثم قال بعد كلام: فلما أن مَضَوا لسبيلهم طاهرين عَقَبَهُم التابعون لهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، فجمعوا ما كان من الأحاديث متفرقًا، وبقي أحدهم يرحل في طلب الحديث الواحد

وفي المسألة الواحدة الشهر والشهرين، وضبطوا أمر الشريعة أتم ضبط، وتلقوا الأحكام والتفسير من في الصحابة رضوان الله عليهم، مثل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عباس رضي الله عنهما».

وكان علي بن أبي طالب يقول: «سلوني ما دمت بين أظهركم؛ فإني أَعْرَفُ بأَزِقَّة السماء مما أنا عارف بأزقة الأرض»، وقال صلى الله عليه وسلم في ابن عباس: «**ترجمان القرآن**»، فمن لقي مثل هؤلاء كيف يكون علمه، وكيف يكون جاله وعمله؟!

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «لست تاركًا شيئًا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ».

وصلى عمر رضي الله عنه بذي الحليفة ركعتين، فقال: «أصنع كما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنع».

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «القصد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة».

ومن آثار التابعين في اتباع السنة: قول أويس القرني في وصيته لهرم بن حيّان رحمه الله تعالى: «إياك أن تفارق الجماعة -يعني جماعة اتباع السنة واجتناب البدعة- فتفارق دينك وأنت لا تشعر فتدخل النار يوم القيامة في أول من دخل».

وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: «سَنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سننًا، وولاةُ الأمور بعده سننًا، الأخذ بها تصديق بكتاب الله واستعمال لطاعة الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي من خالفها، من اقتدى بها مُهتدٍ، ومن انتصر بها منصور، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولّاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا»[1].

---

(١) د/ فاطمة محجوب، «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية» (١/ ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩) باختصار. ط. دار الغد العربي ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

وقف مالك عند زمزم فقال: يا أيها الناس، من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس، أنا النذير لكل من حج هذا البيت وهو على بدعة فلا يعني نفسه باطلًا، ومما كان ينشد مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وخير أمور الدين ما كان سنة ... وشر الأمور المحدثات البدائع

وقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس في سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا اتباعها».

وكان أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: «عليكم بالأثر وطريقة السلف».

وحكى أحمد بن حنبل قال: «كنت يومًا مع جماعة تجردوا ودخلوا الماء، فاستعملت الحديث: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر**» ولم أتجرد، فرأيت تلك الليلة قائلًا يقول لي: يا أحمد، أبشر، فإن الله قد غفر لك باستعمالك السنة، وجعلك إمامًا يقتدى بك. قلت: من أنت؟ قال: جبريل» [الحديث أخرجه الإمام الترمذي في سننه في كتاب الأدب: ما جاء في دخول الحمام][1].

❋❋❋

(١) «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية»، (ص٢٧٧، ٢٧٨).

فصل

أصول الدين في عصر الصحابة:

تتعدد المواقف التي توضح اتجاه الصحابة في تلقي الآيات القرآنية والنظر إليها؛ فإذا بدأنا في دراسة تلك المواقف بمنهج استقرائي، استطعنا الوقوف على استنباطهم للنصوص الشرعية من الكتاب والسنة، فيتضح لنا كيف بدأ التنازع، وأسباب حدوث الانشقاقات عن القواعد الإسلامية بعدهم، وكيف جوبهت الفرق المنشقة عن صف الجماعة، كالخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية وغيرهم؟ وظل علماء السلف من أهل الحديث والسنة يحملون على أعناقهم هذه المهمة، فيفندون مزاعم المنشقين، موضحين أسباب انحرافاتهم، مبينين القواعد الإسلامية الصحيحة المتلقاة عن الأوائل.

وتجتمع عناصر بحثنا في ما رأينا من قواعد عامة تجمع مواقف الصحابة، منها: أنهم تكلموا في أصول الدين جميعًا، كما أنهم يتفقون في المنهج فيفسرون القرآن بالقرآن، مستندين إلى طرق الاستدلالات العقلية التي أشار إليها وَحَضَّ على استخدامها.

إخبار الرسول ﷺ لصحابته بما كان وما هو كائن:

ما أسهل الاستدلال بالأحاديث النبوية والأحداث التاريخية على أن الرسول ﷺ شرح لهم الأصول الإسلامية كلها، أو ما يسميه المتكلمون بـ(أصول الدين):

عن أبي زيد عمرو بن أحطب الأنصاري رضي الله عنه قال: «صلَّى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطب حتى حضر العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر حتى غربت الشمس، فأخبرنا ما كان وما هو كائن، فأعلمنا أحفظنا» [رواه مسلم].

ولنتصور ذلك الجمع الحاشد من الصحابة وهم يستمعون باهتمام شديد لكل كلمة عما كان وما هو كائن؛ فإن الرسول ﷺ لا يردد عليهم معلومات مألوفة أو معارف عادية، ولكنه يبلغهم ما أوحى الله تعالى به من مشاهد عالم الغيب الذي تعجز -مهما بلغت من الذكاء والفطنة- عن التوصل إليه.

إن كل أسباب التعليم مُهيأة، من حيث الرسول ﷺ المبلغ، والنفوس المتعطشة لتتلقى عنه الرسالة الخاتمة؛ فهي الفرصة الأخيرة السانحة لهم وللناس أجمعين، إنها فرصة التلقي من مشكاة النبوة.

عن أنس رضي الله عنه قال: «قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما انتهينا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيكِ؟! أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟! فقالت: إني لا أبكي، إني لأعلم أن ما عند الله تعالى خير لرسول الله ﷺ، ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها» [رواه مسلم].

كان الوحي المعصوم إذن هو المصدر الذي تلقى منه الصحابة بواسطة النبي ﷺ هذه الأصول الدينية، كذلك أرشدهم إلى منهج المحافظة عليها، ونهاهم عن مفارقتها، وما نشأت الفرق وما انشق الصف الإسلامي الأول إلا بمخالفة نواهي رسول الله ﷺ.

وهذه النواهي أجملها ابن الوزير اليماني في النصوص التالية:

١- النواهي عن البدع.

٢- النواهي عن المراء مطلقًا، بخلاف المجادلة بالتي هي أحسن.

٣- النواهي عن المراء في القرآن.

٤- النواهي عن المراء في القدر خاصة.

٥- النواهي عن التفكير في ذات الله تعالى[(١)].

وسيتضح لنا في الصفحات القادمة أن الخلاف والفرق -بل وهزائم المسلمين أمام أعدائهم- كانت بسبب بعض -أو كل- عصيانهم لهذه النواهي النبوية.

وسنقتصر الآن -ما دمنا نعرض لمعالم عصر النبوة- على بحث أهم مسائل أصول الدين، تلك المتصلة بأشرف العلوم وأعلاها، أي العلم بالله تعالى، وكيف أرشد الرسول ﷺ صحابته خاصة والمسلمين عامة إلى أحكم الطرق وأفضلها لسد منافذ الشيطان ووسوسته.



(١) ابن الوزير اليماني، «ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان»، (ص٤٦)، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

فصل

حاجتنا إلى معرفة العقيدة الإسلامية:

يبدو العنوان لأول وهلة لافتًا للنظر، فربما سأل سائل: وهل نحن في حاجة كمسلمين لمعرفة العقيدة على صفحات الكتب، ونحن نشهد شهادة التوحيد ونلتزم بأداء العبادات؟!

وإجابتي على هذا السؤال أننا حقًّا نعرف عقيدتنا كأصول وقواعد عامة متفرقة بحسب ما تلقينا من دروس في (الدين)، أو استمعنا إليه من خطب ومحاضرات، أو قرأناه في كتب ومقالات متفرقة لا يجمعها نسق متكامل يفي بالغرض.

كل هذا حسن، ولكن قارنوا بين هذه المعلومات المتفرقة التي نحصلها باجتهاداتنا الخاصة، وبين (كم) معلوماتنا الثقافية في العلوم والآداب والصناعات والمهن وغيرها، لقد برعنا في تحصيل العلوم والمعارف بكفاءة واقتدار، وظهر منا النابغون في المهن والصناعات والعلوم... إلخ.

ولكن الظاهرة العامة هي ضعف التحصيل في علوم الدين -لاسيما العقيدة والفقه- بينما تشكل العقيدة قلب الأمة، وتحدد ملامحها، وتبرز معالم حضارتها.

وربما كان للبعض العذر؛ لأنه ليس مجال تخصصه؛ أي: الفقه أو التاريخ أو السيرة، ولكن الطامة الحقة هي ظاهرة الضعف في معرفة أركان العقيدة الإسلامية وأصولها، وهي نقطة ضعف خطيرة يترتب عليها اهتزاز تصورنا للحياة والوجود والمصير، وما ينجم عنه من آثار في أعمالنا وقيمنا وعلاقتنا مع بعضنا لبعض كمجتمعات إسلامية بغيرنا من دول العالم.

إننا في حاجة إلى بناء الإنسان على أساس (عقائدي) إسلامي، لا أساس وطني أو قومي، أو مبني على تقليد ومحاكاة لحضارة أخرى.

وإذا أردتم الدليل فادرسوا تاريخنا، وضعوا أعينكم على العلاقة المطردة بين معرفة أجدادنا واستمساكهم بعقيدتهم وبين ازدهار حضارتهم، ثم تتبعوا سبل الاستعمار الغربي العسكري والثقافي، كيف حقق أهدافه مستفيدًا من دروس حروبه الصليبية في العصور الوسطى، وجاءنا في العصر الحديث مزودًا بحصيلة تجاربه، حيث نجح في (هدم) و(تخريب) نسيج الإنسان المسلم، وأحل محله إنسانًا غريبًا عن الإسلام، والإسلام غريب منه!!

وما لم نعالج التخريب الذي أحدثه الاستعمار داخل نفوسنا بأن نصحح عقيدتنا ونجعلها أساسًا للحركة والبناء الحضاري، ما لم نفعل ذلك فإننا كمن يحرث في البحر.

لذلك أرى ضرورة حث المسلم الغيور إلى التشمير عن ساعد الجد في معرفة الإسلام: عقيدته وشريعته وعباداته ومعاملاته ونظمه وتاريخه الطويل من مصادرها؛ فإن تراثنا الإسلامي يضم كنوزًا لا تقدر بثمن، والكف عن الانبهار بكل ما يرد إلينا من ثقافة الغرب؛ فبعد تجارب أجيال قرأت، ودرست، واستوعبت، وناقشت، ونضجت، نستطيع الإفلات من النفوذ الغربي، والتغلب على آثار الغزو الثقافي، وأصبحنا مهيئين بصورة أفضل لنقد النظريات الاستشراقية والمذاهب الفلسفية الغربية مهما كانت، والدعوة إلى نبذها للتفرّغ إلى الدعوة إلى الله تعالى، والتربية وإقامة شرع الله تعالى في محيط المسلمين في الأسرة والمجتمع، بدلًا من ضياع الطاقات في محيط قانون الفعل ورد الفعل في المجال الثقافي وحده الذي كان دأب البعض إلى وقت قريب، وكأنَّ الغزو الثقافي قد نجح في استدراجنا إلى غرضه!!

وهذه هي البداية الحقة لمقاومة السيطرة الحضارية الأوروبية، وإقامة صرح حضارتنا الإسلامية من جديد، و(توجيه) طاقاتنا كلها إلى هذا الهدف، وفي هذا المعنى يقول مالك

ابن نبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ: «فالتوجيه هو تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت، فهناك ملايين القواعد الكاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية صالحة لأن تستخدم في كل وقت، والمهم أن ندير هذا الجهاز الهائل المكون من ملايين السواعد والعقول في أحسن ظروفه الزمنية والإنتاجية المناسبة لكل عضو من أعضائه، وهذا الجهاز حين يتحرك يجدِّد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود، وفي هذا تكمن أساسًا فكرة توجيه الإنسان الذي تحرِّكه دفعة دينية، وَبِلُغَةِ الاجتماع: الذي يكسب من فكرته الدينية معنى (الجماعة) ومعنى (الكفاح)»[١].

وبدورنا نقترح تكثيف البحوث والدراسات والمؤلفات عن الأزمة التي تعاني منها حضارة العصر لكي ننقذ المستغربين في بلادنا من مرض (التغريب)، وإقناعهم بالانضمام إلى أمتهم والتحول إلى هويتهم الأصلية... فبعد أن كانت الآمال معقودة على علوم الرياضيات والفلك والطبيعة ودورها في التغيير إلى الأفضل بروح متفائلة بالمستقبل لحضارة الغرب، تصاعدت أزمات هذه الحضارة ابتداء من الحربين العالميتين، وانتهاءً بمشكلاتها المتنوعة، مثل تآكل مؤسسة الأسرة، وانتشار الإيدز والمخدرات، وتراكم أسلحة الدمار الكوني، والأزمة البيئية، وتزايد اغتراب الإنسان الغربي عن ذاته... وهذه الأمور أصبحت في نهاية الستينيات أخبارًا يومية تتناقلها الصحف والإذاعات والمجلات[٢].

ويقول الدكتور رشدي فكّار: «تأزّم الإنسان الذي ارتقى، إنسان ميكانيكي ينام بحبوب، ويتقوى بحبوب، خبت العواطف وضعفت المشاعر ... إلخ. هذا المنعطف الخطير يقف الإسلام منقذًا للبشرية»[٣].

---

(١) مالك بن نبي، «شروط النهضة»، (ص١١٧، ١١٨)، توجيه: عمر كامل مكاوي وعبد الصبور شاهين، ط. دار الفكر، ١٩٦٩م.

(٢) د/ عبد الوهاب المسيري، «العالم من منظور غربي»، (ص١١٥)، ط١، ٢٠١٧م - دار الشروق.

(٣) د/ رشدي فكار في حوار متواصل حول مشاكل العصر، (ص٤٦).

إعداد: خميس البكري - مكتبة وهبة ١٤٠٧هـ - ١٩٦٨م.

ولمزيد من المعرفة نوصي بالاطلاع على المصادر التالية: =

هذا، وتحت عنوان «تحذير إلى الإنسانية» كتب الدكتور أحمد أبو زيد يقول في نوفمبر عام ١٩٩٢: اجتمع أكثر من ألف وستمائة من كبار العلماء المهمومين بمستقبل الجنس البشري وعلاقته بالكون، وكان من بينهم عدد من الحائزين على جائزة نوبل في العلوم، وأصدروا تقريرًا أو بيانًا بعنوان تحذير إلى الإنسانية (Warning to Humatity).

أشاروا فيه إلى أن «الجنس البشري والعالم الطبيعي في سبيلهما إلى الصدام الذي قد يقلب الأمور رأسًا على عقب، ويجعل استمرار الحياة صعبًا بالشكل الذي عرفناه وألفناه، وأعلنوا صراحة أننا نحذّر الإنسانية كلها مما ينتظرها، وأنه ينبغي إجراء تغييرات جذرية على أسلوب توجيهنا لكوكب الأرض وطريقة التعامل والحياة فوقه، إذا أردنا تجنب حدوث مزيد من البؤس الإنساني وتشويه هذا الكوكب بشكل لن تجدي معه أي محاولة للإصلاح!».

ومن افتراءاتهم أن يأخذ العلماء في اعتبارهم المبادئ الفكرية الأساسية المميزة للثقافات الأخرى -أي الغير عربية- التي تعني بالجوانب الإنسانية أو الروحانية، وأن ذلك سوف يساعد على تحقيق النظرة الشاملة للمعرفة[1].

دور العقيدة في تاريخنا الحضاري:

ويزداد الأمر وضوحًا، ويصبح أكثر إقناعًا إذا تزودنا برؤية أحد عمالقة الفكر في العصر الحديث بآفاقه الواسعة الجامعة بين ثقافةالعصر الفلسفية والحضارة الإنسانية بآدابها وفنونها وتواريخ الأمم.

= ١- «أزمة العالم المعاصر» للفيلسوف الفرنسي رينيه جينو.
٢- «نحن وعصرنا: الاضمحلال واللا منطقية» للأديب اليوناني قسطينطينوس بالاخورس.
٣- «موت الغرب» للكاتب الأمريكي باتريك بوكان.
٤- «هل هو عصر الجنون؟» للدكتور/ مصطفى محمود.

(١) د/ أحمد أبو زيد، مقال بعنوان «الإنسانية البازغة» مجلة العربي - الكويت (ص٣٢، ٣٣) باختصار / ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

لقد انتقل إلينا من الغرب رافضًا له ولحضارته، مقبلًا على الإسلام باقتناع وشوق، ذلك هو الفيلسوف المسلم (رجاء جارودي).

إنه في بحثه عن عوامل الانتشار العاصف للإسلام استبعد جارودي انتصار المسلمين لعوامل خارجية؛ كضعف أو انحلالها الإمبراطوريات المهزومة (الرومانية والفرس الساسنية والفيزيغوت الإسبانية)[١]، ولكنه أرجع هذا الانتشار العاصف إلى أسباب عميقة تتصل بجوهر الإسلام وروحه، وفي رأس هذه الأسباب الإلحاح على إعلاء كلمة الله تعالى، إلى جانب أسباب أخرى منها تحرير المضطهدين في ظل مظالم الإمبراطوريات الآنفة سياسيًّا واقتصاديًّا ودينيًّا.

وفي إسبانيا بالذات، كان مثيرًا للعجب أن تنتصر فئة من سكان الحجاز وتنجح حفنة من البدو من أقاصي الجزيرة العربية في فرض لغتهم وعقيدتهم الإسلامية على خمسة عشر مليونًا في شبه قارة مساحتها ستمائة ألف كيلو متر!!

وسرعان ما يزول العجب إذا أخذنا في الحسبان قوة العقيدة الإسلامية ووصول بعض القادة العرب، وآخرهم عبد الرحمن.

ثم يأتي بعد ذلك التسامح مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأتباع زرادشت والهنود أيضًا.

ودام الأمر كذلك يستبعد جارودي (القوة)، ويصحح مفهوم المستشرق (ماكدونالد) عن (الجهاد)، لأنه لا يعني (الحرب)؛ فالحرب لفظة أخرى مستقلة، فالجهاد (جهد) مبذول في سبيل الله[٢].

---

(١) جارودي، «ما يعد به الإسلام»، (ص٦٠)، ترجمة: قصي أتاسي، ميشيل واكيم، دار الوثبة، دمشق، سنة ١٩٨٢م.

(٢) «ما يعد به الإسلام»، جارودي.

ويضيف الأستاذ العَقَّاد إلى ذلك قوله: «إن العقيدة الإسلامية لم تكن قوة غالبة وحسب في إبان النشأة والظهور، ولكنها كانت قوة صامدة بعد مئات السنين، ولا بد من تفسير لهذه القوة الصامدة، كما لابد من تفسير لتلك القوة الغالبة. فإن القوة التي تصمد كالقوة التي تغلب في حاجتهما إلى التفسير، أو لعل القوة التي تصمد أولى بالتفسير من القوة الغالبة، لأنها تدافع فتقوى على الدفاع حيث لا عدة عندها للغلبة في ميدان الصدام والصراع.

وصمود القوة الإسلامية في أحوال الضعف عجيب، كانتصارها في أحوال الشدة والسطوة، ولا سيما الصمود بعد أكثر من عشرة قرون»[(١)].

هذه الظاهرة تبدو لكل من يستوعب العقيدة الإسلامية بطرفيها: العلمي والعملي الحركي.

«إن قضية العقيدة لا تنحصر في بعض القضايا العلمية فقط، ولكنها طاقة حية، وقدوة دافعة، ولذلك مثَّل الله تعالى لها بالشجرة الطيبة، عميقة الجذور، وفيرة الثمار، وافرة الفروع والظلال، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذْنِ رَبِّهَاۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم:٢٤-٢٥]، فالكلمة الطيبة -كلمة التوحيد: لا إله إلا الله- لها أصل ثابت في قلب العبد المؤمن من العلم والاعتقاد، ولهذا الأصل فروع باسقات تثمر كلمًا طيبًا وعملًا صالحًا وأخلاقًا مَرْضِيةً وآدابًا حسنة.

فليست العقيدة هي دروس نظرية يُعَلِّمها الدعاة للناس، وإنما عليهم أن يعلِّموهم كيف يقيمون الحياة كلها على مقتضى هذا العلم.

---

(١) عباس محمود العقاد: الإسلام في القرن العشرين، ص(١١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

إن حاجتنا إلى العقيدة فوق كل حاجة، وضرورتنا إليها فوق كل ضرورة؛ لأنه لا سعادة للقلوب، ولا نعيم ولا سرور إلا بأن تعبد ربَّها وخالقها»[1].

العقيدة الإسلامية تنظم حياة المسلمين[2]:

وللتعرف على العقيدة الإسلامية الجامعة بين الأصول الاعتقادية وقواعد السلوك العملية المنظمة لحياة المسلمين، أفرادًا وجماعات في كافة أعمالهم، علينا الاستناد إلى حديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شُعب الإيمان الشاملة لذلك كله؛ إذ قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **«الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبةٍ، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من شعب الإيمان»** [متفق عليه].

ونحن نجملها باختصار فيما يلي:

١ - العقائد:

الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، الإيمان برسل الله عَزَّوَجَلَّ صلى الله عليهم أجمعين، الإيمان بالملائكة، الإيمان بالقرآن وجميع الكتب المنزلة قبله، الإيمان بأن القدر خيره وشره من الله عَزَّوَجَلَّ، الإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالبعث بعد الموت.

٢ - وفي أعمال الجوارح:

التلفظ بالتوحيد، وتلاوة القرآن، والتعلم والتعليم، والحرص على نظافة البدن بالغسل والنظافة والوضوء، والصلوات الخمس، والزكاة، والصيام، والحج، والاعتكاف، والكفارات، والوفاء بالعهد، وغض البصر، والحذر من المعاصي: كبائرها وصغائرها، وتحريم القتل والسرقة والربا وأعراض الناس، وحفظ اللسان، والتورع

---

(١) سحر أبو شعرة، مقال بعنوان: تدريس العقيدة على طريقة الربَّانيين، ص(٢٦)، مجلة البيان، شعبان ١٤٣٣هـ - يوليو ٢٠١٢م، الرياض.

(٢) «مختصر شعب الإيمان» للبيهقي، تأليف: القزويني، حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤطي، مكتبة دار البيان، دمشق، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

في المآكل والمشارب، وتحريم لبس الحرير للرجال، وتحريم الملاعب والملاهي المخالفة للشريعة.

٣- وفي أعمال القلوب:

على رأسها محبة الله تعالى ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيمه وإتباع سنته، والشكر، والصبر، والكرم، والزهد، وقِصَر الأمل، والإعراض عن اللغو، والجود، والسخاء، مع اجتناب الحقد والحسد والغضب وشح المرء بدينه، وإخلاص العمل لوجه الله عَزَّ وَجَلَّ، والسرور بالحسنة وبالاغتمام بالسيئة، والتوبة.

٤- وفي الأمور الاجتماعية والسياسية:

تنظيم أمور الزواج والطلاق، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وبر الوالدين، والإحسان إلى المساكين والضعفاء واليتامى، والإصلاح بين الناس، وأداء الأمانات، وإقامة العدل والشورى، والجهاد في سبيل الله، والتمسك بما عليه الجماعة، وإكرام الجار وعيادة المرضى، والصلاة على الموتى.

٥- وفي دائرة السلوك والأخلاق:

اكتساب المال وإنفاقه بالحلال، وتفادي الإسراف والتبذير، والحض على الإنفاق ومحاربة الجشع والبخل، واجتناب اللهو الباطل، وتشميت العاطس، وتوقير الكبير، ورحمة الصغير.



فصل

وجوب معرفة الله تعالى وصفاته

يقول الإمام اللالكائي: «سياق ما يدل من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وما روي عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن وجوب معرفة الله تعالى وصفاته بالسمع لا بالعقل». والأدلة على ذلك قول الله تعالى مخاطبًا نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلفظ خاص والمراد به العام: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:١٠٦]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، فأخبر الله نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الآية بالسمع والوحي بمعرفة الأنبياء قبله التوحيد.

وكذلك وجوب معرفة الرسل بالسمع:

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥][١].

وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٦٥]. فدل على أن معرفة الله والرسل بالسمع كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة.

ومن السنة:

روى المؤلف نبذة عن ثابت، عن أنس، قال: (نُهينا أن نسأل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن شيء، فكان يعجبنا أن يجيء الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية، فقال: يا محمد، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك. قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «صدق»)[٢].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للإمام اللالكائي، جـ(١)، ص(١٩٦).
(٢) السابق (ص١٩٨).

هذا، وقد ذكر الإمام اللالكائي ثلاث روايات لحديث هذا الرجل من البادية، ومنها حديث طويل يستفسر فيه الرجل عن العبارات التي أخبره بها رسول رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي باختصار: الصلاة في كل يوم وليلة خمس صلوات.. وأخذ الصدقة من أغنيائهم فيقسمها على فقرائهم.. وأن عليهم زكاة في أموالهم.. وصيام الشهر في السنة.. وأن عليهم حج البيت من استطاع إليه سبيلًا.

وفي كل سؤال للرجل يرد عليه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «صدق».. أي إن رسوله قد صدق في كل ما أخبره به.

وفي حديث ثابت عن أنس، قال الرجل في الختام: فبالذي بعثك بالحق، لا أزيد عليهن شيئًا ولا أنقص منهن شيئًا.

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لئن صدق ليدخلن الجنة»**(١).

ويقول الإمام أبو العز (ت٧٩٢هـ) في كتاب (شرح العقيدة الطحاوية):

«اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عَزَّ وَجَلَّ. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٥٩]. وقال هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف:٦٥]. وقال صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٧٣]. وقال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للإمام اللالكائي، (ص٢٠١)، وقال المؤلف: أخرجه البخاري من حديث الليث بن سعد، ومسلم من حديث سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن أنس. وحديث ابن عباس، إسناد صحيح/ جيد غريب، وعلق على ذلك محقق الكتاب بقوله: «حديث ابن عباس أخرجه أبو داود نسبه آخر عن كريب».

اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ولهذا كان الصحيح أن أول واجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله، لا النظر، ولا القصد إلى النظر.. بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان.. فالتوحيد أول ما يدخل به الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، دخل الجنة**» فهو أول واجب وآخر واجب[1].



(١) شرح العقيدة الطحاوية، جـ(١)، ص(٢١-٢٣)، تحقيق: د. عبد الله التركي، وشعيب الأرنؤوطي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

التوحيد

إن توحيد الربوبية لله -أعني رد الأمر كله لله- يقرّ به كل المكلفين من مؤمن وكافر[(١)].

نقطة البدء أن معرفة الله عَزَّوَجَلَّ فطرية بدليل آية الميثاق، وحديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي رواه البخاري في صحيحه: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كل مولود يولد على الفطرة؛ فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟**». ثم يقول أبو هريرة: واقرأوا إن شئتم: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠].

ومما قدمنا: يتبين أن الإقرار بتوحيد الربوبية لله جِبِلي مفطور عليه المؤمن والكافر، كما نبَّه الله عليه بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢].

وللإمام الخطابي تفسير لهذا الحديث، فيرى «أن كل مولود من البشر إنما يولد في مبدأ الخلقة وأصل الجبلة على الفطرة السليمة والطبع المتهيئ لقبول الدين، فلو تُرك عليها وخلى وسومها لاستمر على لزومها ولم يفارقها إلى غيرها؛ لأن هذا الدين موجود حُسْنُه في العقل، يُسْره في النفوس، وإنما يعدل عنه من يعدل إلى غيره ويؤثر عليه لآفة من آفات النشوء والتقليد، فلو سلم المولود من تلك الآفات لم يعتقد غيره، ولم يختر عليه ما سواه، ثم يمثّل بأولاد اليهود والنصارى في اتباعهم لآبائهم والميل إلى أديانهم، فيزولون بذلك عن الفطرة السليمة وعن المحجة المستقيمة»[(٢)].

---

(١) «تيسير الوحيين بالاقتصار على القرآن من الصحيحين»، (ص٥٠)، للشيخ عبد العزيز بن راشد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م.

(٢) «معالم السنن شرح سنن أبي داود»، للخطابي، جـ(٤)، (ص٣٠٠، ٣٠١)، بتحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.

وروى الإمام أحمد بسنده عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أخذ الله تعالى الميثاق من ظهر آدم بنَعْمَانَ -يعني: عرفة- فأخرج من صُلبِهِ كلَّ ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قِبَلًا، قال:** ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٢-١٧٣]» [صححه الحاكم].

وروى ابنه عبد الله في زوائده على مسند أبيه بسنده عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير هذه الآية، قال: «جمعهم فجعلهم أرواحًا، ثم صَوَّرهم، فاستنطقهم فتكلموا، ثم أخذ العهد والميثاق وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، قال: فإني أُشهد عليكم السموات السبع والأرضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن تقولوا يوم القيامة: لم نعلم بذلك. اعلموا أن لا إله غيري، ولا رب غيري؛ فلا تشركوا بي شيئًا، إني سأرسل إليكم رسلي؛ يذكرونكم عهدي وميثاقي، وأنزل عليكم كتبي. قالوا: شهدنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب غيرك. فأقروا بذلك». وقال الإمام الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

الميثـاق:

وروى البخاري بسنده عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابًا يوم القيامة: لو أن لك ما في الأرض من شيء، أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم. فيقول: أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي، فأبيت إلا أن تشرك بي**» [رواه مسلم وغيره].

ويقـول الشـيخ حافـظ الحكمي تعليقًـا على ما سبق: «والأحاديث في هـذا الباب كثيرة»[1].

---

(١) معارج القبول بشرح سُلَّم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، جـ(٢)، ص(٢٠٣-٢٠٤)، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، ط دار ابن خلدون بالإسكندرية، بدون تاريخ. =

إن توحيد الله تعالى، وإفراده بالعبادة هو الغاية التي من أجلها خلق الله الإنس والجن، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]. وهو الغاية التي أرسل الله من أجلها الرسل أجمعين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]، وهو النعمة الكبرى والمنة التي امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بها على هذه الأمة، فهي سعادة العبد في الدنيا والآخرة.

كما أن تحقيق إخلاص العبادة لله تعالى وحده هو الشرط لصحة سائر الطاعات وقبولها، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر:٦٥].

وهو كذلك آخر ما يخرج به العبد من الدنيا بسلام، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من كان آخر كلامه من الدنيا: لا إله إلا الله، دخل الجنة**» [رواه البخاري][1].

وعن نفي الشريك والولد، قال تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون:٩١-٩٢].

وترشدنا هذه الآيات إلى دلائل وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ.. ولم يكن معه إله آخر قد شاركه في أعباء هذا العالم؛ لأن من شأن الشريكيْن أو الشركاء أن يستقل كل واحد بنصيب مما يشتركون فيه، ويمتاز بإدراته والتصرّف فيه عن باقي الشركاء، فيبدو لكل

= وحديث الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بـ(نعمان)، وأخرج من صلبه كل ذريته ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قِبَلًا، قال:** ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ ﴾»، قد رواه الإمام أحمد كما بينا أعلاه، والنسائي، والحاكم، والبيهقي في السنن، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته.

(١) سحر أبو شعرة، «تدريس العقيدة على طريقة الربّانيين»، (ص٢٢)، مجلة البيان، الرياض.

واحد أثر خاص في ملكه يختلف عن آثار غيره، وهنا تنشأ أملاك مستقلة لملوك مختلفين؛ فيحدث بينهم التغالب والتزاحم، ويبغي كل واحد الاستئثار بما في يد الآخر كما هو الحال في ملوك الدنيا، فيختل نظام العالم، ولا يبقى على هذا الإتقان والإحكام، ولكن شيئًا من ذلك لم يحدث، فوجب أن يكون إله العالم واحدًا لا شريك له، مُنَزَّهًا عما يصفه الكافرون، وهو الله الواحد الأحد المحيط علمه بكل شيء خفي عنَّا أو ظهر، غاب أو حضر، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو اللطيف الخبير(١).

ويقول د/ صالح الفوزان:

«ويستلزم توحيد الربوبية توحيد الأُلوهية أيضًا؛ ومعنى ذلك أن مَنْ أقرّ بتوحيد الربوبية لله عَزَّوَجَلَّ، فاعترف بأنه لا خالق ولا رازق ولا مدبِّر للكون إلا الله عَزَّوَجَلَّ لزمه أن يقرّ بأنه لا يستحق العبادة بجميع أنواعها إلا الله سبحانه، وهذا هو توحيد الأُلوهية؛ فإن الأُلوهية هي العبادة؛ فالإله معناه: المعبود، فلا يُدعى إلا الله، ولا يُستغاث إلا به، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا تُذبح القرابين وتُنذر النذور، ولا تُصرَف جميع أنواع العبادة إلا له، فتوحيد الربوبية دليل لوجوب توحيد الأُلوهية، ولهذا كثيرًا ما يحتج الله -سبحانه- على المنكرين لتوحيد الأُلوهية بما أقرُّوا به من توحيد الربوبية، مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

فأمرهم بتوحيد الأُلوهية، وهي عبادته، واحتجّ عليهم بتوحيد الربوبية الذي هو خَلْق الناس الأولين والآخرين، وخلق السماء والأرض وما فيها، وتسخير الرياح وإنزال

---

(١) محمد أبو بكر وآخرون، «أدب الإسلام للمدارس الثانوية»، جـ(٣)، ص(١٤٢)، مطبعة مصر بالقاهرة، ١٩٣٨م.

المطر، وإنبات النبات، وإخراج الثمرات التي هي رزق العباد، فلا يليق بهم أن يشركوا معه غيره ممن يعلمون أنه لم يفعل شيئًا من ذلك»[١].

❀❀❀

(١) د/ صالح الفوزان، «معنى التوحيد وأنواعه – الحلقة الرابعة»، مجلة التوحيد، جماعة أنصار السنة والجماعة، العدد (٥٤٤)، ربيع آخر ١٤٣٨هـ.

فصل

الملائكة:

جعل الإسلام الإيمان بالملائكة أيضًا أصلًا من أصول الإيمان، وأول ما يتبادر للذهن هو توضيح الإسلام حقيقة الملائكة التي أشاعت حولها المذاهب الفلسفية والأديان الأخرى الأباطيل؛ فإنها عند بعضها معبودات وآلهة أو أرباب ينوبون عن الله ويساعدونه في تسيير نظام الكون، وعند البعض مجرد عقول، وزعم البعض أنهم بنات الله، أو أنهم شركاء الله في الأُلوهية والربوبية. وإزاء كل هذه المزاعم الخاطئة جاد القرآن بالتصور الصحيح للملائكة[١].

أما عن منزلة الملائكة في نظام الكون فقد بَيَّنَها القرآن، وفصل القول فيها تأكيدًا لدعوة الإسلام إلى التوحيد الخالص الكامل في وجود الله تعالى وصفاته وأفعاله، ومن ثَمَّ فليس للملائكة إلا الطاعة والعبادة والتسبيح والتقديس، فلا يغفلون عن وظيفتهم، ولا يفترون عنها ولا للحظة واحدة في الليل والنهار، قال تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]، ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦]. إنهم مأمورون لأداء الأعمال التي نيطت بهم؛ كالنزول بالوحي الإلهي على الرسل والأنبياء، ونفخ الروح في الجنين، وقبض الأرواح عند الموت، وإنزال المطر، وتسجيل أعمال الإنسان، وكل هذه الأعمال لا تخضع إلا لأمر الله تعالى وحده، فليست لهم أية فاعلية مستقلة، ولذا وصفهم الله بقوله: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات:٥][٢].

---

(١) المودودي، «الحضارة الإسلامية»، (ص١٦٠).

(٢) المودودي، «الحضارة الإسلامية»، (ص١٦٠).

ويكفينا هذا القدر من الحديث عن الملائكة من جهة واحدة، حيث عنينا بتوضيح حقيقتهم للرد على الآراء الفلسفية والنحل الأخرى التي ذهبت مذاهب شتى فحادت عن طريق الصواب، وكذلك ستعني بالكلام عن الإيمان باليوم الآخر لصلته بالتصور الصحيح للحياة بشقيها: الدنيا والآخرة. ولكن مسائل الإيمان -بعد الإيمان بالله تعالى- ليست محصورة في هاتين المسألتين كما نعلم، حيث أورد القرآن الحكيم كل ما يتصل بالإيمان في آيات متعددة.

فقد قيل في موضع: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت:٣٠]، وفي موضع آخر ذكر الإيمان بالله مع الإيمان باليوم الآخر: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البقرة:٦٢]، وفي موضع ثالث وردت الدعوة إلى الإيمان بالرسل مع الإيمان بالله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٩]، وفي موضع آخر ذكر الإيمان بالله مع الإيمان بالكتب الإلهية والقرآن واليوم الآخر: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء:١٦٢]، وقيل في سورة البقرة: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]. وكذلك حديث جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الإيمان.

ويبقى الحديث عن صفاتهم وأعمالهم ومعاونتهم بني آدم، فتتضح إذا استعرضنا بعض الآيات والأحاديث وشروحها؛ فإن اسم (الملائكة، والملك) يتضمن أنهم رسل

الله، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر:١]. وكما قال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات:١](١).

لذلك فإن الملائكة رسل الله تعالى في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، وكما قال: ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠].

وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل:٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج:٧٥].

أما من حيث عدد الملائكة فلا يحصيه إلا الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى:٥].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]. وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا ملكٌ قائم أو قاعد أو راكع أو ساجد»**(٢).

وقد وصفهم القرآن بالتسبيح والعبادة لله، وأورد من أحوالهم وأعمالهم ما لا يحصيه إلا ذو الجلال، وإلى القارئ بعض الآيات الدالة على ذلك:

---

(١) ابن تيمية، «نقض المنطق»، (ص١٠٠).

ويرد بذلك على الفلاسفة الزاعمين أن العقول والنفوس هي الملائكة، بحجة التوفيق بين الشريعة والفلسفة.

(٢) قال الشيخ حامد الفقي: رواه أحمد، والترمذي، وابن ماجة من حديث أبي ذر بنحوه.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة:٤٠].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت:٣٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ [السجدة:١١].

وهناك الأحاديث النبوية أيضًا التي تخبرنا بالملائكة وأسمائهم وصفاتهم، حيث ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الملائكة الذين في السموات، وملائكة الهواء والجبال، وغير ذلك[1].

ولقد لخص الشيخ سيد سابق رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ الحديث عن الملائكة بأسلوب معاصر، فبدأ بالتعريف، ثم بيان أصل خلقتهم وطبيعتهم، ومدى تفاوتهم وعملهم في عالم الأرواح وعملهم في عالم الطبيعة، وسنتناول كل عنصر من هذه العناصر باختصار:

١- الملائكة، أو الملأ الأعلى عالم لطيف غيبي غير محسوس، وهم مُطَهَّرون من الشهوات، ومنزهون من الآثام والخطايا.

وهم ليسوا كالبشر يأكلون ويشربون ويتصفون بالذكورة أو الأنوثة[2].

مِمَّ خلقوا؟

والملائكة خَلَقَهُم الله من نور، كما خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من طين، وكما خلق الجان من نار. روى مسلم عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خُلقت الملائكة من**

---

(١) ابن تيمية، «نقض المنطق»، (ص١٠٠-١٠٥).

(٢) الشيخ سيد سابق، «العقائد الإسلامية»، (ص١١١) باختصار، دار الكتب الحديثة بالقاهرة، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

نور، وخُلق الجانُّ من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصِف لكم، ومسكنهم السماء، وينزلون بأمر الله»[١].

طبيعتهم:

وطبيعة الملائكة الطاعة التامة لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ والخضوع لجبروته والقيام بأوامره، وهم يتصرفون في شئون العالم بإرادة الله ومشيئته، وهو سبحانه يُدَبِّر ملكه بِهِمْ، وهم لا يقدرون على شيء من تلقاء أنفسهم ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل:٥٠].

وهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦].

تفاوتهم:

يتفاوتون في الخَلْق كما يتفاوتون في الأقدار تفاوتًا لا يعلمه إلا الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر:١].

روى مسلم عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رأى جبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ له ستمائة جناح»[٢].

عملهم:

وللملائكة عمل في عالم الأرواح، وعمل في عالم الطبيعة، ولهم صلة خاصة بالإنسان؛ فعملهم في عالم الأرواح يتلخص في عدة أمور، أو يتلخص فيما يلي:

(أ) التسبيح والخضوع التام لله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٦].

(١) الشيخ سيد سابق، «العقائد الإسلامية»، (ص١١٢).
(٢) السابق، (ص١١٥).

(ب) حمل العرش: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ﴾ [غافر:٧].

(جـ) التسليم على أهل الجنة: ﴿ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤].

(د) تعذيب أهل النار: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦][١].

النزول بالوحي:

وملك الوحي هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾ [البقرة:٩٧].

ويسمى «الروح الأمين»، و«روح القدس»، و«الناموس»، ويأتي جبريل أحيانًا في صورة بشر، وأحيانًا مثل صلصلة الجرس (وهو الرنين المتتابع)[٢].

عملهم في الطبيعة ومع الإنسان:

وللملائكة عمل في تدبير أمور الكون من إرسال الرياح والهواء، من سوق السحب وإنزال المطر، ومن إنبات النبات، ونحو ذلك من الأعمال الخافية على الأنظار التي لا تقع تحت الحواس[٣].

وهم يلازمون الإنسان في حياته كلها، وبعد مماته، يقول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن معكم مَن لا يفارقكم إلا عند الخلاء، وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم**».

---

(١) الشيخ سيد سابق، «العقائد الإسلامية»، (ص١١٦، ١١٧).

(٢) السابق، (ص١١٨).

(٣) الشيخ سيد سابق، «العقائد الإسلامية»، (ص١١٩).

تنشيط القوى الروحية الكائنة في الإنسان بإلهام الحق والخير:

عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة؛ فأما لمّة الشيطان فإيعاذ بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاذ بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد من ذلك شيئًا فليعلم أنه من الله، وليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان**»، ثم قرأ: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:٢٦٨][(١)].

عملهم في الطبيعة ومع الإنسان:

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لسعة مغفرته، ولحبه لعباده، يلهم الملائكة أن يضرعوا إليه بالدعاء، ويسألوه برحمته التي وسعت كل شيء، وعلمه الذي وسع كل شيء أن يغفر للتائبين، ويدخلهم الجنة في عباده الصالحين: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر:٧-٩].

وروى مسلم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان يدعوان؛ يقول أحدهما: اللهم أعطِ ممسكًا تلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعطِ منفقًا خلفًا**».

---

(١) السابق، (ص١١٩، ١٢٠).

اللمة كهمة: الخطرة بالقلب، لمة الشيطان: وسوسته بالسوء، ولمة الملك: وحيه بالخير.

تأمينهم مع المصلين:

والملائكة تؤمن مع المصلين، فعن أبي هريرة أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا قال الإمام:** ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، **فقولوا: آمين؛ فإن الملائكة يقولون: «آمين»، وإن الإمام يقول: «آمين»، فمن وافق تأمينُه تأمينَ الملائكة غُفر له ما تقدم من ذنبه**» [رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي](١).

وهم ينزلون عند قراءة القرآن، ويستمعون إليه، ويحضرون مجالس الذكر لإمدادهم بالقوى الروحية(٢).

وهم يصلون على المؤمنين، وخاصةً أهل العلم منهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وعن أبي أمامة أن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض ليصلون على معلم الناس الخير**» [رواه الترمذي]، وقال: حسن. وعن أبي الدرداء أن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع**» [رواه أبو داود، والترمذي](٣).

وهم يكتبون أعمال الإنسان، ويحصون عليه حسناته وسيئاته: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١٠-١٢].

وهم أيضًا يُثَبِّتون المؤمنين بما يلقونه في قلوبهم من التأييد: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال:١٢].

---

(١) الشيخ سيد سابق، «العقائد الإسلامية»، (ص١٢٠، ١٢١).

(٢) السابق، (ص١٢١، ١٢٢).

(٣) الشيخ سيد سابق، «العقائد الإسلامية»، (ص١٢٤).

وهم موكلون بقبض الأرواح: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة:١١](١).

والملائكة الموكلة بالإنسان من حين كونه نطفة إلى آخر أمره، لهم وله شأن آخر؛ فإنهم موكلون بتخليقه، ونقله من طور إلى طور، وتصويره، وحفظه في أطباق الظلمات الثلاث، وكتابة رزقه وعمله وأجله وشقاوته وسعادته، وملازمته في جميع أحواله، وإحصاء أقواله وأفعاله، وحفظه في حياته وقبض روحه عند وفاته، وعرضها على خالقه وفاطره، وهم الموكلون بعذابه ونعيمه في البرزخ وبعد البعث.

وهم الموكلون بعمل آلات النعيم والعذاب، وهم المثبتون للعبد المؤمن بإذن الله، والمعلمون له ما ينفعه، والمقاتلون الذابون عنه، وهم أولياؤه في الدنيا والآخرة، وهم الذين يعدونه بالخير ويدعونه إليه، وينهونه عن الشر ويحذرونه منه؛ فهم أولياؤه وأنصاره وحفظته ومعلموه وناصحوه والداعون له والمستغفرون له، وهم الذين يصلون عليه ما دام في طاعة ربه، ويصلون عليه ما دام يعلم الناس الخير، ويبشرونه بكرامة الله تعالى في منامه وعند موته ويوم بعثه، وهم الذين يزهدونه في الدنيا، ويرغبونه في الآخرة، وهم الذين يذكرونه إذا نسي وينشطونه إذا كسل ويثبتونه إذا جزع، وهم الذين يسعون في مصالح دنياه وآخرته؛ فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، تتنزل بالأمر من عنده في أقطار العالم، وتصعد إليه بالأمر(٢).

وفي صيغة معاصرة، وعلى ضوء ما استجد من اكتشافات علمية، وظهور مصطلحات جديدة، يقول محمد فتح الله كولن: «فكل الأعمال بدءً من العالم الكبير (الكون) وانتهاءً بالعالم الصغير(الذرة)، وكل التغييرات والتركيبات والتحولات تقع

---

(١) السابق، (ص١٢٦، ١٢٧).

(٢) ابن قيم الجوزية، «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» (٢/ ١٢٥-١٢٦)، طبعة الحلبي بمصر، ١٩٦١م.

بإشراف ومراقبة هذه الكائنات المتميزة السامية -أي: الملائكة-، كما تقوم هذه الكائنات القوية والأمينة بنقل التشريعات والأوامر الإلهية النابعة من صفة الكلام الإلهية. فإن أخذنا بنظر الاعتبار قيامها بأعمال مدهشة وكونية اعتبارًا من الإشراف على أعمال الجاذبية والتنافر على المستوى الكوني وانتهاء بالحركة المنتظمة للإلكترونات حول نواة الذرات.. إذا أخذنا هذه الأعمال المدهشة والدقيقة والصعبة علمنا مدى القوة والأمانة التي يجب عليها الاتصاف بها»[1].

❁❁❁

(١) محمد فتح الله كولن، «أسئلة العصر المحيرة»، (ص٥٣، ٥٤)، ترجمة: أورخان محمد علي، دار النيل للطباعة والنشر، استانبول تركيا، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢م.

فصل

الرسل والأنبياء:

وها نحن مرة أخرى أمام سيرة المكلَّفين بإبلاغ الكتب السماوية وتعليم الناس الحكمة ونعني بهم الرسل والأنبياء.

ولموضوع النبوَّات جوانب متعددة لن نخوض فيها إلا بقدر ما يتصل بإثبات أفضليتهم، ودورهم في هداية المجتمعات الإنسانية على مدى التاريخ، مع حاجة البشرية الماسة للاهتداء بالنبوة في كل العصور والأزمنة، وظهور حاجتها الآن بصورة أكثر إلحاحًا من أي وقت مضى[١].

إننا أمام أحوال المجتمعات المعاصرة المماثلة للعيان، لا يسعنا إلا التأكيد على الحاجة الملحة للاهتداء بسبيل النبوة من جديد؛ حيث ضلت البشرية طريقها حينما ظنت واهمة أنها تستطيع أن تستبدل بهم العلماء والفلاسفة والأدباء والمصلحين الاجتماعيين وقادة السياسة والحروب وغيرهم ممن حادوا عن الطريق المستقيم، ولا حجة لاعتراض المعترضين بالعصرية واختلاف مشاكل العصر؛ لأن مهمة الرسل إسعاد الإنسان على اختلاف العصور والأزمنة، حيث يبينون له منهج حياته. والدراسة التي أجراها الأستاذ أبو الحسن الندوي في هذا الصدد أوصلتنا إلى أن الجيل البشري لم يزل في تاريخه الطويل موضوع عبث العابثين من القادة والزعماء، أو تجربة المجربين والمجازفين من المشرعين والحكماء، وقد عبثوا بأبناء جنسهم وعقليتهم ومدنيتهم، فَجَرَّ كل ذلك على الإنسانية البائسة شقاءً طويلًا وويلًا عظيما[٢].

---

(١) ابن تيمية، «الرد على المنطقين» (ص٢٤٨-٢٥٢).

(٢) الندوي، «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن»، (ص١٠).

أما تعليله لذلك فيرجع أول ما يرجع إلى الجهل بقوانين العلاقات البشرية؛ فقد ثبت العجز عن تحقيق السعادة بالرغم من التقدم الحضاري المادي الآخذ بالألباب. وفي تحليل الأسباب يذكر أحد العلماء المتخصصين في الدراسات الطبية والنفسية المعاصرين وهو أليكس كارليل في كتابه (الإنسان ذلك المجهول)، فيذكر عوامل -أو أسبابًا- متعددة نقتبس منها ما نراه ضروريًّا لتوجيه الأنظار إلى مدى الوهم الذي نعيش فيه من جراء الظن بأن التقدم العلمي في مجال العلوم التجريبية وحدها كفيل بتحقيق السعادة التي يبحث عنها البشر، ويستند باحثنا على دراساته وأبحاثه العلمية وتجاربه الطويلة مع مرضاه والتي استغرقت سنين طويلة؛ فيخرج إلينا بنتائج ذات بال منها: أن الأطباء والمعلمين وعلماء الصحة لم يبلغوا هدفهم؛ لأنهم يعالجون خططًا تشتمل على جزء فقط من الحقيقة الإنسانية، ويرجع ذلك إلى تعقد ظاهرة الحياة نفسها، ومن ثَمَّ حققت علوم الجماد تقدمًا عظيمًا، بينما بقيت علوم البشر في حالة بدائية، وحتى العلوم التي اصطلح بتسميتها «العلوم الإنسانية» كالاجتماع والاقتصاد فهي علوم افتراضية تخمينية، ولم تفلح الأنظمة التي أنشأها أصحاب المذاهب في عقولهم إلا في تقديم مزيد من الضحايا دون تحقيق الأهداف التي رسموها في خيالاتهم؛ فمبادئ الثورة الفرنسية وخيالات ماركس تنطبق فقط على الرجال الجامدين؛ أي على تشخيص نظري للإنسان دون معرفة حقيقته وجوهره ويخلص عالمنا من أحد أبحاثه إلى نتيجة تدعو إلى التأمل والنظر، إذ يعترف بقوله: «إننا قوم تعساء؛ لأننا ننحط أخلاقيًّا وعقليًّا؛ فالجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نموٍ وتَقَدُّمٍ هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع عودة من غيرها إليها». ويرى أن العلاج الوحيد الجائز لهذا الشر المستطير هو معرفة أكثر عمقًا بأنفسنا. وهنا يظهر أهمية دور الرسل والأنبياء؛ فنتساءل بدورنا: ما الذي يمنع بني الإنسان من الانقياد

للرواد الوحيدين المختصين بفهم أعماق النفس البشرية، وهم أطباء النفوس، ونعني بهم الرسل بعامة، وخاتمهم -صلى الله عليهم- خاصة؟

والأدلة كثيرة على صدق النبوة، وقد سجل التاريخ بطريق التوازن أخبار الرسل والأنبياء في كل الأزمنة والعصور، وتنوعت المصادر والوثائق عن أدوارهم ومهامهم. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: فإن نَقَلَة أخبار الأنبياء وأتباعهم أكثر عددًا من نَقَلَة أخبار ملوك الفرس والعرب في جاهليتها. ونكتفي من بين المؤرخين المعاصرين بمؤرخ واحد وهو (ويلز) الذي استند إلى الكتب المعروفة بأسفار الأنبياء التي تكاد تكون عنده أقدم الشواهد وأفضل الدلائل على ظهور صنف جديد في شئون الإنسانية، هي زعامة الأنبياء، وبتأريخه لسلطان الأنبياء المتزايد لم يقتصر على الشعب اليهودي؛ بل مما أثار دهشته أن تعدد الأنبياء كان شيئًا يحدث في تلك الأيام في كل أرجاء الشرق، فانتشرت بواسطتهم عقيدة وجود إله واحد عظيم في هذا العالم بأسره. ثم تعاقبت الأنبياء، وفي النهاية ظهر عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وبالرغم من انفراد كل منهما بخصائصه المميزة، يقول ويلز: «فإن هذين المعلمين قد نشأا بطريقة ما على شاكلة هؤلاء الأنبياء السابقين»[1]. ولكننا نضيف، أنه ﷺ تفرد بدعوى العالمية، «فأرسل الرسائل في حياته إلى ملوك الأرض وعظماء الأمم، فانتهت دعوته لكل الأمم»[2].

ونضيف إلى ما تقدم أن ما من برهان يثبت به نبوة نبي أو رسول من الأنبياء والرسل إلا ونجده أشد وأقوى وأدل على نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، ودون خوض في تفاصيل سيرته إلا أن من الضروري بيان السمات الرئيسية التي تميز سيرته عن سائر الرسل؛ لأنه آخر رسول للبشرية إلى قيام الساعة، والسمات التي نعنيها هي:

---

(١) ويلز «معالم تاريخ الإنسانية»، ترجمة: عبد العزيز جاوين، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٨م، المجلد الثاني، (ص٢٥٩).

(٢) المودودي، «الحضارة الإسلامية»، (ص١٨٩).

(أ) أن التاريخ الصحيح يؤيدها ويدل على صحتها.

(ب) أنها جامعة ومحيطة بمناحي الحياة كلها وجميع شئونها وأطوارها.

وبهذه المناسبة يفصح لنا هنا جارودي عن أحد أسباب إسلامه بقوله: «لأنني وجدت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي أتى بهذه الرسالة ليس فقط نبيًّا بالمعنى التقليدي الذي وُجد في الأديان الأخرى، ولكنه كان أيضًا رئيس دولة، وقائد جيش، وزوجًا، ومشرعًا، وقاضيًا.. كل هذه الجوانب التي تعددت وشملت كل نواحي الحياة الاجتماعية...»[١].

(جـ) أنها كاملة متسلسلة لا ينقصها أي حلقة من حلقات الحياة.

(د) وهي عملية بحيث يعبر بها عن الفضائل والواجبات[٢].

وفي حديثنا عن الرسالات نود الإشارة إلى الكتب التي بدت بها نبواتهم، وما زال العالم يحتفظ ببقايا منها، ولا يبقى إلا الكتاب الأخير وهو القرآن كما أوصى به.

وما زالت أمة الإسلام تحتفظ -فضلًا عن ميزة القرآن- بميزة أخرى عن أهل الكتب الأخرى؛ أي: السند في رواية الحديث، وبذلك احتفظت بنوع آخر من الوحي؛ أي: السنة، وهو التسجيل الكامل للحياة الشخصية للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأقوال والأعمال في جوانب السلوك الإنساني كله؛ فنحن أمة السند، يقول ابن تيمية: «وعلم الإسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجعله سلمًا إلى الدراية؛ فأهل الكتاب لا إسناد لهم يؤثرون به المنقولات».

وبذلك حفظ الله تعالى للأمة الإسلامية عقيدتها، وأصبح من واجب المسلمين القيام بدورهم المنوط بهم، إذ يقع على عاتقهم الدعوة لهذه الرسالة في العالم كله ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

---

(١) أبو المجد حرك، «الفيلسوف المسلم، رحلة الفكر والحياة»، (ص٢٢٦)، دار الفتح، مدينة نصر، سنة ١٩٨٥م..

(٢) سليمان الندوي، «الرسالة المحمدية»، (ص٤٢)، ط السلفية.

فصل

صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه

جاء بكتاب سنن الدارمي تحت عنوان: صفة النبي ﷺ في الكتب قبل مبعثه:

عن ابن عباس رضي الله عنه أنه سأل كعب الأحبار: كيف تجد نعت رسول الله ﷺ في التوراة؟ فقال كعب: نجده: «محمد بن عبد الله ﷺ يولد بمكة، ويهاجر إلى طابة، ويكون ملكه بالشام، وليس بفحاش ولا صخاب في الأسواق، لا يكافئ بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، أُمَّته الحمَّادون، يحمدون الله في كل سرَّاء وضرَّاء، ويكبرون الله على كل نَجْدٍ، يُوَضِّئون أطرافهم، ويأْتَزِرون في أوساطهم، يَصُفُّون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم، دَوِيُّهُم في المساجد كدوي النحل، يُستمع مناديهم في جو السماء»[1].

وتحت ما أُعطي النبي ﷺ من الفضل:

أورد الإمام الدارمي بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله فضَّل محمدًا على الأنبياء وعلى أهل السماء. فقالوا: يا ابن عباس، بِمَ فضَّله على أهل السماء؟ قال: إن الله قال لأهل السماء: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٢٩]. وقال الله لمحمد ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾

---

(١) أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمي، ٢٥٥هـ، «سنن الدرامي» جـ(١)، ص(٦)، تحقيق: محمد أحمد دهمان، نشرته دار إحياء السنة النبوية، ط دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.

وفي مرتبه أخذ السنن عن المحدثين، أورد المحقق بعض أقوال علماء الحديث، إذ قال السيوطي: ومسند الدارمي ليس بسند؛ بل هو مرتب على الأبواب، وبعض المحدثين سموه بالصحيح. وقال العراقي: اشتهر تسميته بالمسند كما سمى البخاري كتابه بالمستد لكون أحاديثه مسندة. وقال الشيخ الدهلوي: قال بعضهم: كتاب الدارمي أحرى وألبق بجعله سادسًا للكتب؛ لأن رجاله أقل ضعفًا. وقال ابن تيمية: ابتدأ كتابة بدلائل النبوة. وهو أفضل من مسلم والترمذي وغيرهما؛ ففيه في الحديث أصولًا وفروعًا.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:١-٢]. قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:٤]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ:٢٨]، فأرسله إلى الجن والإنس».

وعن ابن عباس أيضًا قال: جلس ناس من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينتظرونه، فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون، فسمع حديثهم، فإذا بعضهم يقول: عجبًا إن الله اتخذ من خلقه خليلًا، فإبراهيم خليله. وقال آخر: ماذا بأَعْجَبَ من ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء:١٦٤]. وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه. وقال آخر: وآدم اصطفاه الله. فخرج عليهم، فَسَلَّمْ وقال: «**قد سمعت كلامكم، وعجبكم أن إبراهيم خليل الله، وهو كذلك، وموسى نَجِيُّه، وهو كذلك. ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مُشَفَّع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك بحِلَقِ الجنة ولا فخر، فيفتح الله، فيدخلنيها ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله، ولا فخر**»[١].

❁❁❁

(١) الدارمي، «سنن الدارمي»، (ص٢٦).

فصل

المدخل العقلي لصدق نبوة محمد ﷺ:

لقد حض القرآن الكريم على التفكير في أمر النبي ﷺ، واستخدام ميزان العقل للتثبيت من صدق نبوته عليه الصلاة والسلام؛ تدبروا قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

قال القاسمي في تفسير هذه الآية: «أي: قيامًا خالصًا لله بلا محاباة ولا مراءاة، اثنين اثنين، وواحدًا واحدًا، ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾؛ أي: في أمره ﷺ وما جاء به من الهدى وإصلاح الأخلاق، ورفع النفس عن عبادة ما هو أحط منها من الأوثان، إلى عبادة فاطر الأرض والسماوات، واتباع الأحسن ونبذ التقاليد، وإنزال الرؤساء إلى مصاف المرؤوسين رغبة في الإخاء والمساواة، إلى غير ذلك من محاسن الإسلام وخصائصه المعروفة في الكتب المؤلفة في ذلك. وقوله تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾؛ أي: جنون. مستأنف منبه لهم على أن ما عرفوه من رجاحة عقله كافٍ في ترجيح صدقه. والتعبير عنه ﷺ بـ(صاحبكم) للإيماء أن حاله معروف مشهور بينهم؛ لأنه نشأ بين أظهرهم بقوة العقل، ورزانة الحلم، وسداد القول والفعل. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾، وهو عذاب الآخرة والمآل»[1].

كذلك الرسول ﷺ أيضًا عندما أعلن نبوته عقب صدور الأمر الإلهي إليه، استند إلى دليل عقلي؛ فقد ألقى إليهم سؤالًا أولًا -كما سيأتي- حتى يقروا بأمانته وصدقه -أي: المقدمة التي سيبني عليها النتيجة- فلما أقروها، أعلن عليهم النبأ:

(١) القاسمي، «محاسن التأويل»، جـ(١٤)، ص(٤٩٦٦)، تصحيح: محمد فؤاد عبد الباقي، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

فقد نفذ الأمر الإلهي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء:٢١٤]، فصعد على الصفا، فجعل ينادي لبني قريش حتى اجتمعوا، فسألهم: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلًا بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟**» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صِدْقًا. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإني نذير بين يدي عذاب شديد**»[(١)].

والحديث عن نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتشعب بنا إذا لم نحصر حديثنا في جانب واحد من السيرة؛ لأنها أجل وأعظم من أن يحيط بها مؤلف أو مؤلفات على سعتها فما من مؤلَّف من مؤلفات السيرة إلا جاء معبرًا عن أحد جوانبها دون الإحاطة بها جميعًا. وفي نطاق بحثنا المحدود، سنختار مقتطفات من الأدلة على صدق نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، منها -وأولها- معجزة القرآن الكريم التي عجز البشر وسيعجزون حتى قيام الساعة أمام التحدي الإلهي: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ ﴾ [البقرة:٢٤].

وإننا واجدون في إثبات النبوة نفس الطريقة التي يمكن بها أن تثبت أنواعًا من العلماء في البشر؛ كالأطباء والفلكيين والأدباء والشعراء والنوابغ في ميادين المعارف والعلوم المختلفة؛ «فما من أحد يدعي العلم بصناعة أو مقالة إلا والتفريق في ذلك بين الصادق والكاذب له وجوه كثيرة، والنبوة مشتملة على أشرف العلوم والعمال»[(٢)].

والمسالك كثيرة للاستدلال على النبوة بالأدلة العقلية، نختار منها مسلكين:

الأول- المسلك النوعي: وبه استدل النجاشي على نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه لما استخبر الصحابة القادمين عليها فرارًا بدينهم من قريش عما يخبر به، واستقرأهم القرآن، قال بعد سماعه لبضعة آيات من سورة مريم: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة. أي إنه عرف أن طبيعة الكلام تدل على وحدة المصدر.

---

(١) ابن الوزير اليماني، «الذب عن سنة أبي القاسم صلوات الله عليه»، جـ(٢)، ص(١٣١)، المطبعة السلفية.

(٢) ابن تيمية، «شرح العقيدة الأصفهانية»، (ص٨٢).

وبنفس الطريقة سبقه إلى ذلك ورقة بن نوفل، عندما هرعت إليه السيدة خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تسأله عن حقيقة ما حدث للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأجاب قائلًا: «هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ».

الثاني- المسلك الشخصي: وبه استدل هرقل ملك الروم عندما وجه أسئلته إلى أبي سفيان، وهو حينئذٍ من أشد الناس بُغضًا وعدواة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وموجز هذه الأسئلة هي:

- هل كان في آبائه ملك؟ فأجاب بالنفي.
- هل قال هذا القولَ أحدٌ من قبله؟ فأجاب بالنفي.
- هل هو ذو نسب فيهم؟ فأجاب بالإيجاب.
- هل يتهمونه بالكذب؟ فأجاب بالنفي.
- هل اتبعه ضعفاء الناس؟ فذكر أن الضعفاء اتبعوه.
- هل يزيدون أم ينقصون؟ فذكر: يزيدون.
- هل يرجع أحد عن دينه سخطةً له؟ فأجاب بالنفي.
- هل قاتلوه؟ فأجاب بالإيجاب.
- ما طبيعة الحرب بينهما؟ فأجاب: بأنه يُدال على أعدائه المرة، والعكس مرة أخرى.
- هل يغدر؟ قال: لا.

وكان هرقل يسأل أبا سفيان طالبًا ممن معه من تُجار قريش إنْ كذب أن يكذبوه، فوجدهم موافقين له في إجاباته، وأخيرًا سألهم: بماذا يأمركم؟ فقالوا: «يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة».

ثم بيَّن لهم في النهاية دلائل أسئلته؛ فقد سألهم عن أسباب الكذب وعلاماته، فرآه منتفيًا، وسألهم عن علامات الصدق فوجدها ثابتة، وسألهم عن إذا كانَ في آبائه ملك؛ إذ

لو كان في آبائه ملك لقال: رجل يطلب ملك أبيه، كذلك فإن تفرده ﷺ بدعوته يدل على أنه بخلاف ما هو معتاد من اتِّباع الرجل لعادة آبائه واقتدائه بمن كان قبله -وهذا يحدث كثيرًا في المجتمعات الإنسانية-، أما إذا طلب أمرًا لا يتناسب وحال أهل بيته؛ فإن هذا نادر في العادة، لكنه قد يقع، ولهذا أردفه بالسؤال عما إذا كانوا يتهمونه بالكذب، فلما علم صدقه قال: إنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله. ثم أردف ذلك بالسؤال عن علامات الصدق؛ فمن علامات الرسل اتباع الضعفاء لهم، وسألهم: هل يزيدون أم ينقصون؟ فقالوا: بل يزيدون. وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألهم: هل يرتد أحد منهم عن دينه سخطةً له بعد أن دخل فيه؟ وأيقن من إجابتهم بالنفي أنه نبي؛ لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، وعلم أن من علامات صدق نبوته ﷺ أن أَتْبَاعه يزيدون ولا ينقصون؛ لأن الكذب والباطل لابد أن ينكشف في آخر الأمر فيرجع أصحابه عنه، فالمتنبئ الكذاب لا يدوم إلا مدة يسيرة. وفي الحرب عَلِمَ أنه تارةً يَغْلِب كما غَلَبَ يوم بدر، وتارةً يُغلب، وكذلك الرسل تُبتلى وتكون العاقبة لها؛ فإن سنة الله في الأنبياء والمؤمنين أنه يبتليهم في السرَّاء والضَّراء لينالوا درجة الشكر والصبر، كما علم من إجابتهم أنه لا يغدر، فكذلك الرسل فإنها لا تغدر أصلًا؛ إذ الغدر قرين الكذب، وتعرف على صدقه أيضًا من أمره ﷺ بعبادة الله وحده، والصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة، وينهاهم عما كان يعبد آباؤهم؛ وهذه صفة نبي.

وعلق هرقل في النهاية بقوله: «وقد كنت أعلم أن نبيًّا يُبعث، ولم أكن أظن أنه منكم، ولوددت أني أخلص إليه، ولولا ما أنا فيه من الملك لذهبت إليه، وإن يكن ما يقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين»[1].

---

(١) ابن تيمية، «شرح العقيدة الأصفهانية»، (ص٨٢-٨٦)، مطبعة الكردستان العلمية بالقاهرة، ١٣٢٩هـ.

ونضيف إلى ذلك أن الأدلة العقلية والمنطقية والتاريخية، وما لها ارتباط بعلم النفس والاجتماع والأخلاق، كلها تؤيد أنه النبي صادقٌ حقًّا، وإن كان هذا يتطلب دراسة قائمة بذاتها كما فعل كثير من كبار علمائنا(١)، إلا أننا نختصر هنا الكلام لكي نبرهن على أن المدخل العقلي للعقيدة الإسلامية يتجلى في آياته القرآنية، وصدق رسوله ﷺ، إذا ما نظرنا إليه بعين الإنصاف والتجرد للبحث عن الحق.

وكما تحدثنا من قبل عن تعذر الإحاطة بسيرة الرسول ﷺ في كتاب، فما بالُنا بعدة صفحات؟

ومع هذا، فإنه مما يتصل بدراستنا فحص الآراء التي يلف حولها بعض كُتَّاب الإفرنج ويدورون، لنخرجهم من هذه الدائرة المضللة إلى نور الحق وضيائه. وهذه الآراء لا تخرج في مجملها عن محاولتهم -بطريقة فجة؛ بل مضحكة- إما اصطناع صلة بينه ﷺ وبين الأديان والثقافات السائدة حينذاك في بيئته، أو المساس بالقرآن الكريم، أو النيل من صفاته الشخصية ﷺ.

وبمراجعة صفحات كتب السيرة، ستجد بحمد الله تعالى ما سَبَقَنَا به علماؤنا من مواجهة حاسمة مفحمة لكل ما دندن حوله أعداء الإسلام، وكانت نتيجة المواجهة في صالح الحق والعدل.

وسنعرض لهذه الآراء بحسب ترتيبها:

١- الثقافة في البيئة المكية.

٢- اختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث.

٣- خُلُقُه ﷺ.

---

(١) منهم: الأستاذ محمد لطفي جمعة، الذي رجعنا إليه في هذه الصفحات، مع أن كتابه في السيرة يمتاز بأنه نتاج اطلاع واسع وغزير جدًا -يكاد لا يُبارى في العصر الحديث- مع عمق دراسته تحليلًا ومقارنةً وردًّا على علماء الإفرنج. ويقع كتابه في نحو (١٠٥٧) صفحة من القطع الكبيرة، مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٩م، بعنوان: ثورة الإسلام وبطل الأنبياء أبو القاسم محمد بن عبد الله.

الثقافة في البيئة المكية:

ومن هذه الأدلة أن العرب «كانوا أُميين وثنيين، جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الأمم ومبادئ التشريع وعلوم الفلسفة، وأن مكة عاصمة دولتهم وقاعدة دينهم ومقر كعبتهم ومثوى زعمائهم ورؤسائهم وملتقى الشعوب والقبائل للتجارة والحج والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة والشعر والخطب، لم يكن بها مدرسة ولا مكتب، ولم يوجد بها كتاب مخطوط، فكيف يتهيأ لرجل مثله، وفي مثل هذه البيئة الجاهلة أن يجيء بدين تام وكامل، وشرع وعدل عام؟!!»[1].

إن الدراسة المقارنة والأديان والنظم تصل بالباحث إلى سمو المعتقدات والأحكام والعبادات والآداب التي جاء بها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يكن من الممكن أن يصل إليها عقله وفكره ولا علومه ومعارفه الكسبية، فيتعين أن يكون ذلك بوحي من الله تعالى، ثم إن ما جاء به من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم كان أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره؛ فيتعين أن يكون وحيًا.

ولو كانت النبوة أمرًا كان يرجوه محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان قد أتم استعداده له باختلائه وتعبده -كما يزعم ذلك بعض المستشرقين- ما حدث له ما حدث من رجفة هائلة، ولما عاد إلى زوجته مرتجفًا تصطك أسنانه وترتعد فرائصه ويسيل عرقه؛ بل كان ينزل إلى أهله فرحًا طروبًا منتصرًا متشجعًا، غير هياب ولا وجل، مثل كل رجل يجد الأمر الذي كان يسعى إليه ويطلبه. ولكن الذي حدث أنه بعد نزول سوة العلق انقطع الوحي عنه ثلاث سنوات تباعًا، وكان في هذه الأعوام الثلاثة -وهي التي يسمونها: فترة الانقطاع- ساكنًا هادئًا، لم يتل فيها على ناس سورة ولا آية، ولم يدع أحدًا إلى شيء، ولا تحدث أهله ولا إلى أصدقائه بشيء؛ لأنهم لم ينقلوا عنه شيئًا، فهذا السكوت وحده برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه.

---

(١) محمد لطفي جمعة، «ثورة الإسلام وبطل الأنبياء»، (ص٥٤٧).

أما قصة بحيرة الراهب، فقد وضعها بعض العلماء -أمثال عبد العزيز بن راشد النجدي، ورشيد رضا، ومحمد لطفي جمعة- لأن الروايات الخاصة بها ضعيفة الإسناد، إلا رواية الترمذي وليس فيها اسم بحيرا وفيها غلط في المتن، وليس في شيء منها أن محمدًا ﷺ سمع من بحيرا شيئًا عن عقيدته أو دينه، ولم يكن بحيرا -إن وُجد حقيقة- ساذجًا إلى درجة أنه يفاتح صبيًا صغيرًا بمثل هذه الأسرار العليا.

ومن أبعد الروايات عن الإقناع: ادعاء خصوم الرسول ﷺ أنه تلقى ما تلقاه من حداد رومي بمكة!! فمن المضحك أن لا يجد النبي ﷺ معلمًا إلا في شخص هذا الحداد!! ولعل محمدًا كان يراه في السوق فيقف عليه ليرى صنعته، ولم يكن يفقه لغته ولا يمكنهما التفاهم، ولذا جاء في القرآن: ﴿لِسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

وبالجملة لم يجد النُّقَّاد شخصًا يليق في مكة بأن يكون استاذًا لمحمد ﷺ؛ لأن مكة كان بها يهود ونصارى من طبقة العبيد والرقيق لسادتهم العرب، لأن رؤساء قريش لم يكونوا يسمحون لأحد من ذوي الشأن من النصارى أو اليهود أن يقيموا في مكة -وهي حرمهم المقدس الخاص بأوثانهم- وإن كانوا يتساهلون مع خدمهم وعبيدهم؛ لأنهم في حاجة إليهم، وهؤلاء كانوا من طبقة نازلة، ولكنهم جهلاء، ولا يُتَصور أن محمدًا ﷺ يتنزل أو يتدلى إليهم ليتتلمذ لهم أو يتلقى عنهم رسالته[1].

ومما يدحض أيضًا هذه المفتريات أن ندرس تاريخ رسالة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ منذ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، مع التخلص من روح العنصرية في البحث لذلك؛ فإن استيعاب هذا التاريخ بنظرة شاملة كلية يتطلب -كما يرى جارودي- التخلي عن النزعة الغربية

---

(١) د. محمد عبد الله دراز، «النبأ العظيم»، دار القلم بالكويت، (ص٦٤، ٦٥)، ط ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.

الإقليمية الضيقة، واستيعاب ما جاء به الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الذي أكملوا رسالة إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ويستطرد فيلسوفنا قائلًا: «وحينئذٍ يتاح لنا أن نفهم أسباب استبدال المسيحية الناهضة باليهودية المتحجرة، كما يتاح لنا أن نفهم السبب الذي من أجله أصبحت المسيحية خيالية مشوهة، بفعل سياسة الامبراطور قسطنطين، تلك السياسة التي قلبت المسيحية رأسًا على عقب.

إن مفهوم (نظام الكهنوت) الروماني المنشأ، في كتاب «الإسلام والمذاهب الفلسفية» والذي صُبغ فيما بعد بصبغ يونانية ثم أقره مجمع (نيقيا) كعقيدة روحية لاهوتية.. إن هذا المفهوم سرعان ما يتصدع وتشظى إلى شيع عديدة، لم يستطع أن يقاوم البديل التاريخي، وهو **الإسلام**»[1].

أي إنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بعقيدة التوحيد ليصحح العقائد التي انحرفت على أيدي اليهود والنصارى بعد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فكيف يقال: إنه جاء مقلدًا لهذه الانحرافات، آخذًا عنها؟!!

ويسخر الفيلسوف الفرنسي المهتدي للإسلام، من نسبة بعض المستشرقين القرآن الكريم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فيقول تحت عنوان (محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يؤلف القرآن): «حقًّا ليدهشني أن يرى بعض المستشرقين أن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد انتهز فرصة الخلوة فروى ورتَّب عمله في المستقبل، بل ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك؛ فوسوس بأن محمدًا ألف في تلك الفترة القرآن كله أحقًّا لم يلاحظوا أن هذا الكتاب الإلهي خالٍ من أي خطة سابقة على وجوده، مرسومة على نسق المناهج الإنسانية؟ وإن كل سورة من سوره منفصلة عن

---

(١) جارودي، «ما يعد به الإسلام» (ص٢٤٠).

غيرها، وخاصةً بحادثة وقعت بعد الرسالة طيلة فترة تزيد على عشرين عامًا، وأنه كان من المستحيل على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتوقَّع ذلك ويتنبَّأ به؟ ولكنهم في جهلهم بالعقلية العربية لم يجدوا غير ذلك تعليلًا لهذا التحنث الطويل»[1].

اختلاف الأسلوب بين القرآن والحديث:

يقول أحد كُتَّاب السيرة المعاصرين: «إني أتخذ من الاختلاف في الأسلوب بين القرآن والحديث دليلًا علميًّا وعقليًّا وأدبيًّا على صحة الوحي». ويشرح ذلك بالرد على الزاعمين انتحالَ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القرآن لنفسه؛ إذ لو فعل ذلك، لكان أدعى إلى الفخر والمباهاة والشهرة وذيوع الصيت، لدلالته على القدرة الباهرة في نظم الكلام وتأليفه والاطلاع على علوم الأولين والآخرين، والوقوف على أسرار الكون والعالم بما لم يسبق لأحد من الحكماء والمشرعين من قبل، ولكن هذا الكذب لا تقبله نفس محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا ترضاه سريرته، ولا يتحمله ضميره، فضلًا عن أنه لو كان القرآن هو كلامه، ما تمكن من التفكير في أسلوب آخر ينطق به في أوقات أخرى، خصوصًا وأن القرآن كان يأتيه ويهبط عليه في أحوال شاذَّة من كرب وضيق وعرق ورجفة، وقد تواتر الصدق في رواية صفته عندما كان يجيء الوحي على هذه الحال، وهي حالة استثنائية لا يمكن فيها للكاتب أو المفكر أو الشاعر الذي أحوج ما هو إليه، أن يملك زمام نفسه واعتدال مزاجه، في حين أن حديثه وجوامع كلمه ومواعظه ونصحه، كان ينطلق بها وهو على أشد ما يكون راحة وهدوءًا وسلامة بدن وسكون بال[2].

---

(١) اتيين دينيه، «محمدٌ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»، (ص١٠٧).

نقلًا عن مقال بعنوان: شبهات المستشرقين حول الوحي القرآني، ص(٣٠)، مجلة دراسات استشراقية، العدد ٤ ربيع ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

(٢) انظر: محمد لطفي جمعة، «ثورة الإسلام وبطل الأنبياء»، (ص٥٤٧، ٥٥٠، ٥٥٨)، مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٥٩م.

ويقرر بعد الاستشهاد بأقواله وخطبه وحكمه التي ملأت الآفاق وأصبحت من السنن التي شرعها الله تعالى على يديه، أن من أقوى الحجج على صدق الوحي المحمدي وأوضحها وأجلاها وأظهرها أن حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصحيح وجوامع كلمه وحكمه الوجيزة الصائبة وأجوبته المتقدمة -وقد سارت كلها مسير المثل، وقيلت بجملتها عفو الساعة، دالة على حضور بديهته وصفاء نفسه وقوة ذهنه- كانت جميعها تختلف اختلافًا بيِّنًا عن ألفاظ القرآن ومعانيه[١].

خُلُقه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فإذا صعدنا النظر إلى خُلُقِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سحرتنا الآيات الباهرات، بحيث يصدع لها كل إنسان سليم الفطرة خلا قلبه من الدغنِ وشهوات الهوى والزيغ، وابحث في سيرته فلا تجد إلا كل خلق عظيم، ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]، وقد تفرَّد بهذا الوصف بلا منازع دون الأنبياء والرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- جميعًا. وعن الحسن في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران:١٥٩]، قال: «هذا خلق محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نعته الله عَزَّوَجَلَّ». وسُئلت السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خلقه، فقالت: «القرآن»[٢].

وسنختار في هذا الخبر ثلاثة نماذج فقط من بين مئات الشواهد الدالة على خلق النبوة الحقة، وهي التي أوردها الدكتور محمد عبد الله دراز في كتابه (النبأ العظيم):

١- جلست جويريات يضربن بالدف في صبيحة عرس، وجعلن يذكرن آباءهن من شهداء بدر، حتى قالت جارية منهم: وفينا نبي يعلم ما في غدٍ فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لا تقولي هكذا، وقولي ما كنتِ تقولين»** [رواه البخاري]. ومصداقه في كتاب الله: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ ﴾ [الأنعام:٥٠].

---

(١) السابق، (ص٥٧٤).

(٢) الأصبهاني، «أخلاق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآدابه»، (ص٢٠)، تحقيق: أحمد محمد موسى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٢م.

٢- وكان عبد الله بن أبي السرح، أحد النفر الذين استثناهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإيمان يوم الفتح لفرط إيذائهم للمسلمين وصدهم عنه ثلاثًا، ثم أقبل على أصحابه فقال: «**أما فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين كففت يدي عن بيعته فيقتله؟**» فقالوا: ما ندري ما في نفسك، ألا أومأتَ إلينا بعينك؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين**». رواه أبو داود، والنسائي.

٣- ولما تُوفي عثمان بن مظعون رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قالت أم العلاء -امرأة من الأنصار-: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما يدريكِ أن الله أكرمه؟**» فقالت: بأبي أنت يا رسول الله، فمن يكرمه الله؟ قال: «**أما هو فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، واللهِ ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي**». قالت: فوالله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا. [رواه البخاري، والنسائي].

ومصداقه في كتاب الله تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ﴾ [الأحقاف:٩].

لم يتخف إذن وراء الدهاء أو السياسة، ولم يسمح لنفسه أن يقول ما شاء في شأن ما بعد الموت وهو لا يخشى من يراجعه فيه أو حكم التاريخ عليه؛ إذ منعه خُلُقُه العظيم وتقدير المسئولية الكبرى أمام حاكم آخر أعلى من التاريخ وأهله: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف:٦-٧].

ومهما جال الباحث في صفحات السيرة النبوية؛ فلن يعثر إلا على الصفاء والصدق والإخلاص في كل قول من أقواله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي كل فعل من أفعاله، خلاف سيرة صنوف البشر جميعًا؛ إذ نرى الناس يدرسون حياة أساطير الفكر والأدب والفن والشعر، فتعطينا صورًا معبرة عن عقائدهم وعوائدهم وأخلاقهم وأساليب معيشتهم،

ولا يمنعهم زخرف الكلام والشعر وطلاؤه عن استنباط دخائلهم والكشف عن حقيقة سرائرهم، ذلك أن للحقيقة قوةً غلَّابة تنفذ من حُجُب الكتمان، فتُقرأ بين السطور وتُعرف في لحن القول. ومهما تَصنَّع الإنسان العادي فلا يخلو من فلتات في قوله وفعله تنم على طبعه، ما عدا سيرة النبي الصادق صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ كان الناظر إليه إذا حسنت فراسته يرى أخلاقه العالية تلوح في مُحيَّاه، ولو لم يتكلم أو يعمل، ولهذا شرح الله صدر الكثيرين دون أن يسألوه، منهم العشير الذي عرفه بعظمة سيرته: قالت له السيدة خديجة عند بدء الوحي تطييبًا لنفسه المكروبة بهذه الكلمات الدالة على صدق حدسها، فوصفت خلاصة أخلاقه: «أبشر يا ابن عم واثبت؛ فوالذي نفس خديجة بيده، إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ووالله لا يخزيك أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

كذلك منهم الغريب الذي عرفه بسيماه في وجهه. قال عبد الله بن سلام رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «لما قدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة انجفل الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله، قدم رسول الله. فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استثبت وجه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرفت أنه وجهه ليس بوجه كذاب». رواه الترمذي بسند صحيح[(١)].

أما فضله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على البشرية، فنكتفي بشهادة الدكتور سيزل، عميد كلية الحقوق بجامعة فيينا في مؤتمر عالمي ١٩٢٧م، إذ قال: «إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليها؛ فإنه على أميَّته استطاع -قبل بضعة عشر قرنًا- أن يأتي بتشريع، سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون لو وصلنا إليه بعد ألفي عام»[(٢)].

---

(١) د/ محمد عبد الله دراز، «النبأ العظيم» (ص٣٢-٣٥) - دار القلم - الكويت، «نظرات جديدة في القرآن»، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

(٢) علي القاضي، «أضواء على التربية في الإسلام»، (ص٥٥)، دار الأنصار بالقاهرة، ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م.

ويتضح للباحث المتابع لأحداث التاريخ أن النزاع سيظل قائمًا بين الحق والباطل، وبكلمة موجزة نقول: جاء الإسلام في الوقت الذي فشا فيه الباطل بأشكاله وصوره المختلفة، وكان يتمثل إما في عقائد وثنية انحرفت عن الرسالات الإلهية الأصلية -كما اتضح لنا في مطلع دراستنا عند تناول الفكر الشرقي القديم-، أو انحراف أهل الكتاب عن الشريعة الإلهية، ونعني بهم اليهود والنصارى؛ فقد أعلن اليهود العصيان لنبي الله عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وآذوه، وانطوت النصرانية كما رأينا تحت جناح الفلسفة اليونانية.

وهكذا يمر الناس الآن بنفس الظروف تقريبًا؛ فالمطَّلع على أحوال البشر يلاحظ ما يعانيه من حيرة وقلق واضطراب لسبب جوهري هو شيوع الباطل، ربما بنفس أشكاله، فإذا شخصنا الأمراض التي تعاني منها المجتمعات الإنسانية المعاصرة، فإنها لا تخرج في أساسها عن الشرود عن طريق الحق.

وما زال الاختبار قائمًا بين طريق الحق الذي جاء به الإسلام، أو أن يظل بنو آدم في غيهم يعمهون.

ولهذا جاء القرآن الكريم وسيظل يذكرنا في كل آن بالعقيدة الصحيحة في الإيمان بالله واليوم الآخر، وتعريف الإنسان بأصله ومكانته في الوجود، والغاية من خلقه، ودوره في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩]. وقال عز مِن قائل: ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧].

وقد آمن المسلمون الأوائل بالحقائق الغيبية، واستقرت في عقولهم وقلوبهم، وهم أهل أفضل القرون كما ورد في الحديث، وكان هناك إجماع على فهمهم، وظل الأمر كذلك في العصور المفضَّلَة في تاريخ الإسلام وقبل عصر الترجمة ومعرفة المسلمين لأية ثقافات أخرى فارسية أو يونانية أو غيرها، وما زال هذا التيار الذي يربط المسلمين بالفَهْم

الصحيح للإسلام ما زال قائمًا تربطه بالمصادر الإسلامية -أي: الكتاب والسنة وفهم السلف- وشائج قوية، فأصبح كالصخرة في الرسوخ والثبات، إذ تنحصر عنها كل التيارات المنحرفة عن العقيدة الإسلامية الصحيحة؛ فقد نبذ السلف -كما هو معلوم- كل الثقافات الطارئة من الأمم الأخرى التي تتعارض مع العقيدة الإسلامية الصحيحة.

ولِمَ لا يفعلون؟ وقد أراهم الله تعالى الآيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى تبين لهم إن ما قاله هو الحق.

أما عن طلاب البحث عن ثمرة اتباع السُّنَّة، فإنه من اليسير إقناعهم بالحكمة أيضًا.

وقد تفردت شخصية الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باعتباره خاتم النبيين، والقدوة الكاملة في جوانب النشاط الإنساني؛ حيث عاش معه الصحابة حياة حقيقية واقعية قائمة على الاقتداء به والطاعة له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وللمسلمين بعدهم باتباع سنته القولية والعملية.

وكلما كان المسلم أقرب إلى اتباع سنته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إلى السعادة أقرب؛ لأنه -صلوات الله عليه- يسلك طريقه في الحياة وفقًا للوحي، وبعلم تام وحكمة شاملة للإنسان في أحواله كلها، ورسم الطريق السليم لاجتياز الحياة الدنيا بأفضل طريقة ممكنة على المستوى البشري للناس.

ولتقريب معنى القدوة، وفهم دورها في ضوء علم النفس، نضع أمام القارئ رأيًا لأحد علماء النفس المعاصرين، حيث يرى أن (المثل الأعلى الصائب) هو من الناحية السيكولوجية، ذلك الذي يستطيع جلب التوافق للنفس، باجتذاب الانفعالات الغريزية جميعًا، وهو الذي يستطيع -باستثارة الإرادة إلى غرض مشترك- أن يصيب الفرد باعتباره وحدة سيكولوجية في قالب كائن حي، وهو الذي يضمن تحقق الذات والسعادة، وذلك

بإشباع السعي إلى الاكتمال. إن حيازة مَثَلٍ أعلى أو غرض في الحياة لهي إذن أهم الأمور الضرورية للإرادة القوية والخلق المتزن[١].

وكان الأستاذ محمد أسد (ليوبولد فايس قبل إسلامه) سَبَّاقًا نفَّاذًا إلى قلب الحقيقة في فهم وتقريب الحكمة من اتباع السنة للأذهان، ولشرح فكرته: يرى أنه ليس من المقبول أن يتساءل الجند عن أسباب وعلل الأوامر العسكرية؛ بل عليهم تنفيذها فورًا بلا تردد، وإلا أصبح أمر المعارك فوضى، فكذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باعتباره أحسن قائد عرفته البشرية في نواحي الحياة جميعًا: الفردية والاجتماعية والنفسية والورحية، بحيث يجب على المسلمين اتباعه والاقتداء به؛ لأنهم أقروا بنبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن ضياع الجهد والوقت التساؤل في كل موقف عن السر والحكمة.

لكن قد تصبح سعادتنا غامرة إذا ما وقفنا على بعض -أو كل- الحكم من سنته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وما أدق تعبيره عندما يصف السُّنَّة بأنها (**الهيكل الحديدي**) للإسلام.

وهنا يرى أن هناك أسبابًا ثلاثة تؤكد ضرورة إقامة السُّنَّة، وتبين أطرافًا من حكمة اتباعها:

١- تمرين الإنسان المسلم بطريقة منظمة على أن يحيا دائمًا في حال من الوعي الداخلي واليقظة الشديدة وضبط النفس؛ وهذه مزية الاقتداء برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حركاته وسكناته.

إن هذا الانضباط السلوكي وفقًا لِسُنَّتِهِ يؤدي إلى التخلص من الأعمال والعادات العفوية التي تعرقل النشاط الإنساني عن التقدم يقول محمد أسد: «إن الأعمال والعادات

(١) هادفيلد، «علم النفس والأخلاق»، (ص١١٥، ١١٦)، ترجمة: محمد عبد الحميد أبو العزم، ومراجعة: د. عبد العزيز القوصي، مكتبة مصر، سنة ١٩٥٣م.

التي تقوم عفو الساعة، تقوم في طريق التقدم الروحي للإنسان كأنها حجارة عثرة في طريق الجياد المتسابقة».

٢- تحقيق النفع الاجتماعي للمسلمين؛ لأنهم باتباع السُّنَّة -أي: المنهج النبوي في الحياة- تصبح عاداتهم وطباعهم متماثلة مهما كانت أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية المتنافرة.

٣- ضمان الهداية إلى الحياة الإنسانية الكاملة الكفيلة بتحقيق السعادة والحياة الطيبة؛ لأنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعمل بوحي إلهي، وقد أُرْسِلَ رحمةً للعالمين، وليس هاديًا من الهداة فحسب، ولكنه الهادي إلى طريق مستقيم.

وعلى هذا تصبح شخصيته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متغلغلة إلى حد بعيد في منهاج حياتنا اليومية نفسه، ويكون نفوذه الروحي قد أصبح العامل الحقيقي الذي يعتادنا طول الحياة[١].

وما أحوجنا إلى إتباع سُنَّة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمقاومة الحملات المعادية المدروسة، وفن أساليب علم النفس لصياغة الإنسان المسلم صياغة لتطويعه وإخضاعه لثقافة الغرب وطرق حياته[٢].

يقول كارليل: «إن كل فرد يملك القوة على تعديل طريقته في الحياة، وأن يفرض على نفسه أنظمة فسيولوجية وعقلية معينة، وعملًا معينًا، وعادات معينة، كذا اكتساب السيطرة على بدنه وعقله، ولكنه إذا وقف وحيدًا فلن يستطيع أن يقاوم بيئته المادية والعقلية والاقتصادية إلى ما لا نهاية»[٣].

(١) ينظر: محمد أسد، «الإسلام على مفترق الطرق»، (ص١٠٤-١١٠)، ط دار العلم للملايين، بيروت. وهو يصف السنة بأنها الهيكل الحديدي للإسلام.

(٢) «هذا الأسلوب الذي كان يتبع بواسطة إنشاء معاهد يمكن أن يشكل فيها الجسم والعقل طبقًا للقوانين الطبيعية، حينما رأت الديكتاتورية أن من المفيد تكييف الأطفال تبعًا لنظام معين». الكسيس كاريل، «الإنسان ذلك المجهول»، (ص٣٢٤).

(٣) السابق.

ولنا أن نفخر -معشر المسلمين- بسُنَّة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي تحقق لنا -عند اتباعها- المحافظة على مقوماتنا الذاتية وأصالتنا؛ بل من عوامل سعادتنا أيضًا أن (نتدين) ونتقرب إلى الله تعالى عندما نفرض على أنفسنا الأنظمة والعادات ونكتسب السيطرة على أبداننا وعقولنا عندما نقتدي بنبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ذلك أن سُنَّته من قِبَل الوحي الإلهي، وهو الأسوة الكاملة في تحقيق السعادة للإنسان بناءً على معرفته له حق المعرفة، بينما عجزت البشرية حتى القرن العشرين -وسيكون ذلك حالها-؛ لأن المعرفة الصحيحة بالإنسان ينبغي أن تُستمد من خارج نطاق العقل الإنساني وتجاربه؛ أي: الوحي.

وكما بدأنا القول بأن منهج الاتباع بالأدلة والشروط التي وضعها علماء أصول الفقه والحديث، نؤكد مرة أخرى أنه ساعد الأمة بواسطة الصفوة من هؤلاء العلماء على الاحتفاظ بوحدتها وتماسكها، كما حافظ على هوية المسلمين في مواجهة الكوارث والمحن، وأنقذها من الضياع.

وتصور كارين آرمسترونج -الباحثة في تاريخ الأديان- معالم الوحدة بين المسلمين بقولها: «إن كل المسلمين في أنحاء العالم يتشاركون في أسلوب معين للحياة، ومهما كان بينهم من خلافات فهناك هوية إسلامية واضحة تجمع بينهم فورًا؛ فهناك أسلوبهم المشترك في الاغتسال والصلاة، وسلوكهم على المائدة، وعاداتهم الصحية المشتركة، والتي تتبع نموذجًا واحدًا متميزًا. فيقوم المسلمون من الصين وإندونسيا ومناطق الشرق الأوسط المتعددة مثلًا بالسجود في أثناء الصلاة بنفس الطريقة، ويستغرقون أيضًا نفس المدة الزمنية تقريبًا»[1].

وهنا نحن نوضح المسألة بالاسترشاد بفهم السلف؛ فإن تاريخنا لا يعني فقط قرونًا مضت وانقضت، ولكنه يحمل في طياته النموذج الذي تحقق في عصر الرسول

---

(١) كارين أرمسترونج، (القدس) مدينة واحدة - عقائد ثلاث، ترجمة: د/ فاطمة نصر، د/ محمد عناني، سطور ١٩٩٨م.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والخلفاء الراشدين ومَن تبعهم بإحسان، هذا النموذج يظل حيًّا شامخًا أيضًا في جانبيه: الغيبي والأخلاقي.

وقد بلغت حضارتنا ذروتها في ذلك العصر، ومن ثَمّ يصبح معيار التقدم الحضاري أو النهضة المرتقبة لأمتنا الإسلامية وفْق المقارنة معها، ويقاس ذلك بمدى الالتزام باتباعهم، وهو ما عبّر عنه الإمام الشاطبي بقوله: «إن خير القرون الذين رأوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآمنوا به، ثم الذين يلونهم، وهكذا يكون الأمر أبدًا إلى قيام الساعة، فأقوى ما كان عليه أهل الإسلام في دينهم وأعمالهم ويقينهم وأحوالهم في أول الإسلام، ثم لا يزال ينقص شيئًا فشيئًا إلى آخر الدنيا، لكن لا يذهب الحق جملة، بل لابد من طائفة تقوم به وتعتقده، وتعمل بمقتضاه على حسب إيمانهم، لا كما كان عليه الأولون من كل وجه؛ لأنه لو أُنفق من المتأخرين وزن أُحُد ذهبًا، ما بلغ مُد أحدٍ من شُعب الإيمان، بشهادة التجربة العادية»[1].



(١) الشاطبي، «الاعتصام» (١/ ٢٥٨)، تحقيق: محمد رشيد رضا - دار المعرفة - بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٩٨م.

فصل

الإيمان باليوم الآخر:

لا شك أن الإيمان بالغيب من الأمور التي أتى بها الرسول ﷺ، وأخبر عن الغيب المطلق الذي تعجز العقول عن معرفته[1]. وأكدها بالأدلة؛ والأحاديث النبوية زاخرة، ومنها اليوم الآخر وما سيدور في هذا اليوم، ومن الضروري أيضًا التنبه إلى أهمية الإيمان باليوم الآخر؛ لإنعكاس أثر ذلك على حياة الأفراد والمجتمعات؛ فالفرق كبير بين إنسان يؤمن بالبعث والحساب والعقاب في الدار الآخرة، وإنسان آخر لا يؤمن بذلك كله ولا يتصوره، هذا فضلًا عن تأثير هذا الاعتقاد على الأعمال والسلوك في شتى جوانب الحياة الإنسانية في هذه الدنيا، ونود في هذا المجال أن نلجأ إلى العلم التجريبي لكي نثبت بالأدلة أن فتوحات هذا العلم جاءت مؤيدة لعقيدة الإسلام في اليوم الآخر -ولن نتوسع في دراستنا إلا بالقدر اليسير الذي يحقق لنا هذه الغاية-؛ فهناك من الظواهر ما يؤكد مجيء هذا اليوم، طالت مدة انتظاره أم قصرت، وعلى سبيل المثال نذكر الظواهر الآتية:

١- ظاهرة البراكين.

٢- ما اتفق عليه العلماء من ضرورة وجود الأثير؛ حيث تسجل فيه الأقوال ولا تُمحى، فضلًا عن تسجيل الأعمال كلها بالموجات الحرارية الصادرة من الأجسام.

وبشيء من التفصيل اليسير سنعرف أن الزلازل ليست إلا نذير يذكر الإنسان بأنه يعيش دائمًا فوق نار متأججة، لا يملك إزاءها شيئًا، ولا يفصلها عنه سوى قشرة لا يزيد سُمْكها عن ٥٠كم بالنسبة للكرة الأرضية؛ كقشرة ثمرة التفاح. يقول عالم الجغرافيا جورج جاموف: «إن هناك جهنم طبيعية تلتهب تحت بحارنا الزرقاء، ومدننا الحضارية

---

(١) ابن تيمية، «جواب أهل العلم والإيمان»، (ص١٢٣)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٩٤هـ - ٨٤م.

المكتظة بالسكان، وبكلمة أخرى نحن واقفون على ظهر لغم؛ أي: ديناميت عظيم، ومن الممكن أن ينفجر في أي وقت ليدمر النظام الأرضي بأكمله».

كذلك أقوال الإنسان محفوظة؛ فقد ثبت قطعيًا أن الموجات الحاملة للأصوات تبقى كما هي في الأثير إلى الأبد، وسلَّم العلماء نظريًّا بإمكان إيجاد آلة التقاط أصوات الزمن الغابر، كما يلتقط المذياع الأصوات التي تذيعها محطات الإرسال، ولكن سماع تاريخ كل عصر وزمان بأصواته، ومن هنا لا تبقى حقيقة الآخرة بعيدة عن القياس، ولذا نقول: إن كل ما ينطق به الإنسان يُسجل، وهو مُحاسب عليه يوم الحساب: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨].

ويستمر العلم الحديث في خطواته ليؤكد لنا أن جميع أعمالنا التي نباشرها في الضوء أم في الظلام في حالة الصور؛ فقد أثبتت البحوث أنه يصدر عن كل الموجودات حرارة بصفة دائمة في كل مكان وفي كل الأحوال، وأمكن تصوير الموجات الحرارية بآلات تصوير دقيقة[١].

والمغزى المعتبر من هذا الاختراع هو إثبات أن جميع تحركاتنا تُسَجَّل على شاشة الكون، حيث لا يسعنا التخفى منها أو الهرب منها؛ لأنها أشبه بقصة تُصَوَّر في الاستديو ثم نشاهدها على شاشة السينما بعد حقب طويلة من الزمن، وحينئذٍ يصرخ الناس: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف:٤٩][٢].

❊❊❊

(١) وحيد الدين خان، «الإسلام يتحدى»، (ص٨٩)، ترجمة: ظفر الإسلام خان، مراجعة وتحقيق: د. عبد الصبور شاهين، دار البحوث العلمية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(٢) السابق.

فصل

الإنسان: أصله ودوره ومصيره:

إن الحديث عن الإنسان مستفيض؛ لخصائصه الفريدة وقدراته ومواهبه، حتى ليتكاتف عليه الأطباء وعلماء النفس ورجال التربية ورواد الأخلاق وغيرهم، فلا يحيطون به علمًا، وما دام الأمر كذلك؛ فيكفينا التنسيق بين بعض الأفكار التي تدور حول هذا الكائن الفذ، والحق أن المكتبة الإسلامية ذاخرة بتراث ضخم، سنلتقط منها بعض الكلمات التي تصور الإنسان في ناحيتين؛ إحداهما: الناحية الميتافيزيقية أو الغيبية، والثانية: الناحية الأخلاقية.

أولًا- الجانب الميتافيزيقي (الغيبي):

إن المصدر الوحيد الذي يمدنا بحقائق مؤكدة عن خَلْق الإنسان، ومكانته وغايته، هو القرآن الحكيم؛ ولذا عني مفكرو الإسلام باستمداد نظراتهم من القرآن مباشرةً.

مثال ذلك: ما كتبه ابن تيمية في تفسيره لبعض الآيات القرآنية في هذا المجال، مثال قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ [السجدة:٧-٨]. فأصل الإنسان التراب، وفصله الماء، وهنا تظهر القدرة الإلهية التي تبهر العقول، وهو أن يقلب حقائق الموجودات؛ فيحيلها من شيء إلى آخر، فإذا خلق الله الإنسان من المني؛ فالمني استحال وصار علقة، والعلقة استحالت وصارت مضغة، والمضغة استحالت إلى عظام وغير عظام، إذًا فالإنسان مخلوق خلقه الله -جواهره وأعراضه كلها- من المني؛ أي: من مادة استحالت؛ فهي ليست مادة باقية، أحدث الله فيها صورة الإنسان كما يزعم الفلاسفة.

وعن الموت والبعث: يذكر ابن تيمية أنه عند إفناء الإنسان إذا مات وصار ترابًا فني وعدم، كما يفنى سائر ما على الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن:٢٦]. ثم يعيده من التراب كما خلقه ابتداءً من التراب، ويخلقه خلقًا جديدًا، ولكن للنشأة الثانية أحكامٌ وأوصافٌ ليست للأولى.

ويقدم لنا الأصفهاني[1] نظرة أخرى؛ فيذكر أن الإنسان مركب من بدن محسوس، وروح معقول؛ مستندًا إلى قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص:٧١-٧٢]. فالروح هي النفس، ويرى أن إضافتها إلى الله تعالى تشريفًا لها. كذلك يجيبنا عن التساؤلات من الحكمة من خلق الإنسان ومصيره ومكوناته؛ فالإنسان عنده ثلاثة أفعال تختص به، وهي:

(أ) عمارة الأرض: في قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود:٦١]. لتحصيل المعاش لنفسه ولغيره.

(ب) الامتثال لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في عبادته وتنفيذ أوامره، واجتناب نواهيهَ في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

(جـ) وخلافته المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف:١٢٩].

ولا يصلح لخلافة الله ولا يكمل لعبادته وعمارة أرضه إلا مَن كان طاهر النفس، ويتم تطهيرها بوسيلتين، هما:

١- العلم.

٢- العبادات.

---

(١) الأصفهاني، «الذريعة إلى مكارم الشريعة»، (ص١٨). وينظر كتابنا: «مناهج البحث في العلوم الإسلامية»، (ص١٧٩-١٩٥)، مكتبة الزهراء بالقاهرة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

والعبادة -كما يعرفها-: «فعل اختياري منافٍ للشهوات البدنية، تصدر عن نية، يُراد بها التقرب إلى الله تعالى طاعةً للشريعة».

أما دورها: فهو المحافظة على الفطرة التي خُلق بها الإنسان المشار إليه بقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠].

فالعبادة تزيل ران القلب؛ فتنطبع فيه صورة الهداية، كما ترتفع العبادة إلى أرقى مراتبها عندما يؤديها الإنسان متحريًا ابتغاء مرضات الله؛ فيؤديها بانشراح صدر بدلًا من مجاهدة النفس، ولهذا قيل في الأثر: «إن استطعت أن تعمل لله في الرضا؛ فاعمل، وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير».

ثانيًا- الجانب العملي الأخلاقي:

إذا تقيدنا بالتصور الأخلاقي عند ابن تيمية؛ فإننا نلاحظ ما يراه من حركة الإنسان نحو غاية، فتعريفه للإنسان أنه: «حيّ، حَسَّاس، مُتحرِّك بالإرادة»، فله إرادة دائمة. أما الغاية فهي تتعدد وتتخذ صورًا مختلفة. أما المال أو الجاه أو الرئاسة أو محبة الرجل للمرأة والمرأة للرجل وغير ذلك من الأمور المطلوبة للدنيا. أما كمال الإنسان فيتحقق في أن يكون مراده هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ومن لم يكن عبدًا لله؛ فلابد أن يصبح عبدًا لغيره من أنواع المحبوبات التي تستعبده بخلاف الإنسان المؤمن؛ فإن المثل الأعلى لسلوكه هو أن يكون مراده هو الإله الذي يستحق أن يكون محبوبًا لذاته؛ فالنفوس في حاجة إلى الله من حيث هو معبودها ومحبوبها ومنتهى مرادها، ومن حيث هو ربها وخالقها.

والخلق كلهم محتاجون إلى خالقهم، لكن يظن أحدهم أنه نوع استغناء، فيطغى كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق:٦-٧]. وقال في آية أخرى: ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت:٥١].

وقال في غيرها: ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء:٨٣].

أما الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ تقريبًا)، فيرى أن الإنسان في دنياه مسافر، مُتخذًا الدليل على ذلك قصة الخلق. قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦].

ويستشهد بعبارة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الناس على سفر، والدنيا دار ممر، لا دار مقر، وبطن أمه مبدأ سفره، والآخرة مقصده... إلخ».

فالغاية للإنسان ينبغي أن تكون دار السلام، ويحتاج في سفره إلى التزود للسفر، وهو في كدح وكبد ما لم ينته إلى دار القرار، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ﴾ [الانشقاق:٦]. ويحتاج الإنسان في سعيه إلى أربعة أشياء:

١- معرفة المعبود المشار إليه بقوله: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠].

٢- معرفة الطريق المشار إليه بقوله: ﴿قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨].

٣- وتحصيل الزاد المشار إليه بقوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

٤- والمجاهدة في الوصول، كما قال تعالى: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج:٧٨].

وبهذه الوسائل يأمن الغرور الذي خوفه في قوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣][١].

---

(١) الراغب الأصفهاني، «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين»، (ص٤٨).

ولا يخرج ابن تيمية كثيرًا عن هذا الإطار الذي سبق إليه الأصفهاني، إذ يصور لنا الإنسان في حركة مستمرة لكي يتخلص من العوائق التي تحول بينه وبين الوصول إلى غايته، ولفظ الوصول لفظ مجمل؛ لأنه ما من سالك إلا وله غاية، وإذا قيل: وصل إلى الله، أو: إلى توحيده، أو نحو ذلك؛ ففي ذلك من الأنواع والدرجات المتباينة ما لا يحصيه إلا الله. والإنسان في حاجة إلى التوبة الدائمة أثناء حركته نحو ربه، فيصل إلى أفضل ما في الدنيا، ولا يتم ذلك إلا بالعبادات المشروعة؛ لأن الإسلام يقوم على أصلين، هما:

١- أن يُعبَد الله وحده.

٢- وأن يُعبد بما شرع ولا يُعبد بالبدع.

وأظهر ما في العبادة اثنان: الصلاة التي هي قوت القلوب، والجهاد هدفه أن تكون كلمة الله هي العليا، ويدل على كمال المحبة؛ لأنه البذل في سبيل ما يرضي الرب، وهو أنفع من كل عمل؛ لأنه مشتمل على محبة الله تعالى، والإخلاص له والتوكل عليه، وتسليم النفس والمال له، والقائم به من الشخص والأمة بين الإحدى الحسنيين دائمًا، إما النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة، كلاهما هدف سامٍ يحقق السعادة في الدنيا والآخرة، وبالعكس؛ ففي تركه ذهاب السعادتين أو نقصهما، وإذا كان من الناس من يرغب في ترقية نفسه حتى يصادفه الموت؛ «فموت الشهيد أيسر من كل ميتة، وهي أفضل الميتات»[1].

ويوضح لنا ابن تيمية أيضًا حركة الإنسان نحو الكمال، مُفَسِّرًا التقدم والأفضلية بالمفهوم الإسلامي، حيث يظهر الفضل الكامل لبني آدم في دار القرار، تفسيرًا لقوله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]. وهكذا؛ فإن الارتقاء في جوهره أخلاقي، بحيث يصل الإنسان حينئذٍ إلى مستوى أفضل من الملائكة،

(١) «السياسة الشرعية»، (ص١٣٢)، ط دار الكتاب العربي، سنة ١٩٥١م.

فلا يظهر الإنسان في ابتداء أحواله، وإنما يظهر فضله عند كمال أحواله، وليس أدل على ذلك من ثبات أحوال المَلَك الذي يتشابه أول أمره وآخره، فالقاعدة الأساسية إذن إذا تكلمنا عن الرقي الإنساني وتقدمه الحضاري يكمن في رقيه الأخلاقي، وسبيله إلى ذلك الحرية بالمفهوم الإسلامي، وهي تعني تحرير الإرادة الإنسانية من سلطان الهوى والشهوات، والسمو بالغرائز وتهذيبها خضوعًا لأوامر الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الخضوع لها خبط عشواء، كما ينادي بذلك كثير من مفكري العصر الحديث، يعني في حقيقته الانقياد لقوة عمياء، واستعباد الإرادة لا تحررها.

أما الحرية الحقيقية فهي تحرير هذه الإرادة من سلطان الهوى ونفاذ الشهوات، فإن القلب -الذي هو مَلِك الجسم- يصبح ذليلًا أسيرًا إذا كان مستعبدًا، منتميًا لغير الله. ولشيخ الإسلام تفسير منفرد للحرية في الإسلام، يقول: «**وهذا لعمرو الله إذا كان قد** استعبد قلبه صورة مباحة. فأما من استعبد قلبه صورة محرمة.. فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب. وهؤلاء عشاق الصور، من أعظم الناس عذابًا وأقلهم ثوابًا»، ثم يقرر أن الحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس، مستندًا إلى الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، وإنما الغنى غنى النفس**»[1].

وليس هذا كلامًا نظريًّا، ولكن يدعمه شيخ الإسلام بحقيقة مؤكدة؛ إذ يستطيع الإنسان بعمله الوصول إلى المستوى الرفيع؛ إذ ظهرت أرقى مراتب الكمال الإنساني في الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وفي مقدمتهم نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حيث ظهر فضله على الملائكة ليلة المعراج لما صار لمستوى يسمع فيه صريف الأقلام، وعلا مقامات الملائكة.

---

(١) ابن تيمية، «العبودية»، (ص٩٧)، ط. المكتب الإسلامي. والحديث رواه الشيخان.

والحديث النبوي بين المزايا التي اختص بها آدم وحده، وهي: «خَلْقُ الله له بيديه، ونفخ فيه من روحه، وإسجاد ملائكته له، وتعليمه أسماء كل شيء»[١].

كما يمتاز الإنسان بالإرادة دون باقي المخلوقات المسخرة؛ لأن ما يشغله هو الصراع بين الخير والشر؛ إذ إن النفس يدور فيها هذا الصراع بين الملك والعقل والقلب من ناحية، والشيطان والهوى والنفس الأمَّارة في الجهة المضادة، إذ ابْتُلِيَ الإنسان بالحرب الدائرة بينهما؛ فإذا فاز الفريق الأول كان السرور والفرح والبهجة وانشراح الصدر، وأما إذا كان النجاح من نصيب النفس والهوى والشيطان فإن الهموم والأحزان وضيق الصدر هي النتائج المحققة[٢].

والنفس الإنسانية تُسَمَّى بأسماء ثلاثة لصفاتها وأدوارها التي تتعاقب عليها؛ فهي تارةً مطمئنة، وتارةً لوامة، وتارةً أخرى أمَّارة بالسوء[٣]، وأفضل النفوس هي النفس المطمئنة؛ لأن الملك قرينها، يسددها ويرغبها في الحق، ويزجرها عن الباطل، وذلك بخلاف النفس الأمَّارة فإن الشيطان قرينها وصاحبها.

❋❋❋

---

(١) المرجع السابق.

(٢) نفسه.

(٣) نفسه.

فصل

الإيمان بالقدر، وعلاقته بالإرادة الإنسانية:

من أفضل ما نستهل به هذا الموضوع هو إجابة السؤال الذي وُجِّهَ إلى جعفر الصادق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عندما سُئِل عن قول الله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون:١١٥]. لِمَ خَلَقَ الله الخَلْق؟ فأجاب: «لأن الله كان مُحْسِنًا بما لم يزل فيما لم يزل إلى ما لم يزل، فأراد الله أن يفيض إحسانه إلى خلقه، وكان غنيًا عنهم، لم يخلقهم لجر منفعة ولا لدفع مضرة، ولكن خلقهم وأحسن إليهم؛ فأرسل إليهم الرسل ليفصلوا بين الحق والباطل، فمَن أحسن كافأه الجنة، ومن عصى كافأه النار»[١].

ويشرح ابن القيم أنواع الابتلاءات التي يتعرض لها الإنسان أثناء حياته في الدنيا، مُحْصِيًا الآيات القرآنية الدالة عليها، ويذكر أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ابتلى العباد بالنعم، كما ابتلاهم بالمصائب، وأن ذلك كله ابتلاء؛ فقال: ﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء:٣٥].

وقال: ﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ [الفجر:١٥-١٦][٢].

وقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك:٢].

وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود:٧].

فأخبر -سبحانه- أنه خلق العالم العلوي والسفلي، وقدَّر أجل الخلق، وخلق ما على الأرض؛ للابتلاء والاختبار، وهذا الابتلاء إنما هو ابتلاء صبر العباد وشكرهم في الخير والشر والسرَّاء والضرَّاء.

---

(١) ابن تيمية، «شرح حديث النزول»، (ص١٥٩)، منشورات المكتب الإسلامي، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

(٢) في تفسير ابن القيم للآية: قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا ﴾؛ أي: ليس الأمر كما يقول الإنسان، بل أبتلي بنعمتي وأنعم ببلائي.

كذلك وردت الأحاديث الكثيرة في بيان ما يُقابله المؤمن في حياته من ابتلاءات طوال عمره، منها:

عن صهيب الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ؛ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[١].

عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ سَعْدٍ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ صَلَابَةً، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ عَنْهُ، وَلَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ مَا لَهُ خَطِيئَةٌ**»[٢].

والعبد المؤمن أمام شكره على النعم وصبره على البلاء حتى يجتاز طريق الدنيا ويعود إلى الجنة -موطنه الأصلي- كوعد الله تعالى إياه؛ «فإنه ما حرمه عَزَّوَجَلَّ إلَّا ليعطيه، ولا أمرضه إلَّا ليشفيه، ولا أفقره إلَّا ليغنيه، ولا أماته إلَّا ليحييه،وما أخرج أبويه من الجنة إلَّا ليعيدهما إليها على أكمل وجه، كما قيل: يا آدم، لا تجزع من قولي لك: «اخرج منها»، فلك خلقتها، وسأُعيدك إليها»[٣].

موقف الإنسان:

الإنسان إذن أمام هذه الحقيقة لا يملك فرارًا، فهو بين أمر يجب عليه امتثاله وتنفيذه، ونهي يجب عليه اجتنابه وتركه، والصبر مع هذين الطرفين لازم، ولا يخلو من نوعين:

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الدارمي.

(٣) ابن القيم، «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»، (ص٤٧، ٥١، ٦٩).

أحدهما: يوافق هواه ومراده؛ كالصحة والسلامة والجاه والمال.

والآخر: المخالف للهوى، وهو على شكلين:

(أ) يرتبط باختياره؛ كالطاعات والمعاصي، وعليه يترتب الأجر.

(ب) لا يرتبط باختياره؛ كالمصائب، وبها تُمحى السيئات وتُرفع الدرجات[(١)].

ولكن الثابت أن الإنسان لا يملك منح نفسه القدرات والمزايا الجِبلِّية؛ كالذكاء والصحة والأنوثة أو الذكورة، ولا يملك اختيار أبويه فيرث عنهما مواهب وسمات معينة دون الأخرى، ولا انتخاب الزمان الصالح ليعيش فيه، ولا البيئة الصالحة ليُنمي فيها طفولته. هذه كلها أمور لا يمكلها الإنسان وخارجة عن نطاق اختياره، وليس مسئولًا عنها[(٢)].

ولكن المتعللين بالقدر على أفعالهم الإنسانية يحتجون بآيات قرآنية يختارونها وفق أهوائهم؛ كقول الله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [النحل:٩٣]. وهذا الاحتجاج سرعان ما يُدحض أمام النظرة القرآنية لآيات أخرى تُخير الإنسان بين فعلين؛ كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧-٨]، والقرآن يُفسر بعضه بعضًا، وهذا التفسير هو أدق التفاسير والذي يلجأ إليه العلماء؛ أن القرآن مُيسَّر لكل ذي بصر وبصيرة: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:١٧].

وبهذا الفهم يُصبح تفسير الآية الأولى واضحًا لا لبس فيه؛ إذ معناها أن إضلال الله لشخص لأنه آثر الغيّ على الرشاد، فأقرَّه الله على مراده، وتمم له ما يبغي لنفسه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف:٥].

---

(١) الشيخ علي طنطاوي، «تعريف عام بدين الإسلام»، (ص١٣١، ١٣٢)، دار الرائد، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.
(٢) ابن القيم، «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين»، (ص٤٧، ٥١، ٦٩).

إذن فمعنى قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾، لا يتعارض وقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ [البقرة:٢٦-٢٧]، وكذلك الحال في قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. وللنظر إلى قيمة الإرادة الإنسانية في قول الله تعالى وهو يتكلم عن إرادته: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٧-٢٨].

ثم يأتي دور مناقشة المحتجين بالأحاديث النبويّة، وربّما يقع أكثرهم على الحديث الآتي، ويفسّرونه خطأً بأنه يدل على الجبر ونفي حرية الإرادة الإنسانية، والحديث: «**ما منكم من أحد وما من نفس منفوسة إلَّا وقد كُتب مقعده من النار ومقعده من الجنة**»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نتّكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «**اعملوا، فكل ميسَّر لما خُلق له؛ أمَّا مَنْ كان من أهل السعادة فيصير لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فيصير لعمل أهل الشقاوة**». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل:٥-١٠]».

وهذا الحديث -للبصر النافذ- لا لبس فيه[1]؛ أما سبق علم الله تعالى فإنه ليس حجة أيضًا للمحتجين بالقدر على معاصيهم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة:١٤٣]. وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]. وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

فرُوِيَ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: لنرى. ورُوي: لنميز، وكذلك قال عامة المفسرين: «إلا لنرى ونميز». وكذلك قال جماعة من أهل العلم، قالوا: لنعلمه موجودًا واقعًا بعد أن كان قد علم أنه سيكون، ولفظ بعضهم قال: العلم على

---

(١) الشيخ الغزالي، «عقيدة المسلم»، (ص١٤٠). والحديث رواه البخاري بألفاظ متقاربة.

منزلتين: علم بالشيء قبل وجوده، وعلم به بعد وجوده، والحكم للعلم به بعد وجوده؛ لأنه يوجب الثواب والعقاب. قال: فمعنى قوله: ﴿لِنَعْلَمَ﴾؛ أي: لنعلم العلم الذي يستحق به العامل الثواب والعقاب، ولا ريب أنه كان عالمًا -سبحانه- بأنه سيكون، لكن لم يكن المعلوم قد وجد[١].

ويتصل الأصل الثالث بالوعد والعيد، ومضمونه -كما يعبر عنه الشهرستاني- أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعِوَض، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار، ولكن عقابه يكون أخف من عقاب الكفار[٢].

وانسياق المعتزلة في هذا الأصل يتصل بدفاعهم عن الحرية الإنسانية، واحتكامهم إلى العقل؛ إذ أصبح الثواب والعقاب عندهم ينصبّ على أفعال الإنسان نفسها والتي يقتضيها العقل، ومعنى هذا: اعتقادهم أن إثابة المطيع ومعاقبة العاصي -إن لم يتب- أمر محتوم -أي: يجب- على الله تعالى أن يفعله فخلطوا بين الوعد والعيد، بينما يعتقد أهل الحديث والسُّنَّة أنه يجوز على الله تعالى إخلاف الوعيد لا إخلاف الوعد، والفرق بينهما أن الوعيد حقه، فإخلافه عفو وهبة، وإسقاط ذلك موجب كرمه وَجُوده وإحسانه، والوعد على نفسه بوعده، والله لا يخلف الميعاد ويعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أنه من موانع وقوع الوعيد: التوبة، والتوحيد، والحسنات العظيمة، والمصائب المكفرة، وإقامة الحدود في الدنيا، وأضعاف أضعافها.

ويأتي أصلهم في «المنزلة بين المنزلتين» الذي فارقوا به الجماعة ليرتبوا عليه اعتقاد أن مرتكب الكبيرة فاسق، وهو في منزلة بين منزلتي الكفر والإيمان، ولكنهم لم يكفروه كما فعل الخوارج، كما لم يستحلوا الدماء والأموال في الدنيا.

---

(١) ابن تيمية، «الرد على المنطقيين»، (ص٤٤٦)، ط. لاهور، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.
(٢) الملل والنحل، ص(١/ ٥٩).

ولا ينفرد المعتزلة بالأصل الأخير -أي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-؛ لأنه مبدأ إسلامي اعتنقته كل الفرق، وهو أن يقضي بأمر المسلمين وتكليفهم بالجهاد في سبيل الله بأمر الآية: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

إلى جانب اعتقادات أخرى اختلفوا فيها تزيد عن هذه الأصول، مثل قولهم بأن العلم بالله -تعالى- يحصل بالنظر والاستدلال؛ أي: ترتيب الأقيسة العقلية، فخالفوا جماهير الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والعامة وغيرهم؛ لأن سلف الأمة وأئمتها اتفقوا على أن معرفة الله -تعالى- والإقرار به لا يقف على الطرق التي يذكرها أهل طريقة النظر؛ لأن أصل المعرفة والإقرار بالصانع يحصل بديهةً وضرورة، ولا يتوقف على النظر والاستدلال، ويدلل ابن تيمية على ذلك بأن جميع الأمم تُقرُّ بالصانع مع عظيم شركهم وكفرهم؛ ولهذا يوجد له عند كل أمة اسم يسمونه، والتسمية مسبوقة بالتصوّر؛ فلا يسمِّي أحد إلا ما عرفه، ثم المستمع لذلك الاسم يقبل بفطرته ثبوت المسمَّى به من غير طلب حجَّة على وجوده، ويكون قبولها لأسماء سائرها ما أدركه بحسّه وعقله؛ مثل الشمس والقمر والواحد والاثنين، بل هذا أكمل. وهناك آراء أخرى لعلماء السُّنَّة ردُّوا بها على المعتزلة.

❋❋❋

فصل

طرق البراهين القرآنية:

وتتلخص فيما يلي:

(أ) الميزان القرآني:

وسنعرض باختصار طرق البراهين القرآنية التي تغنينا عن طرق المتكلمين والفلاسفة الذين غالوا في تقدير العقل الإنساني، حتى أفرط بعضهم فقدموه على دليل الشرع.

إنه لا يجوز قط أن الأدلة الصحيحة النقلية تخالف الأدلة الصحيحة العقلية، وليس في الشريعة شيء على خلاف القياس الصحيح، بل على خلاف القياس الفاسد[(١)].

وبعد عرض مسهب مقارن للأقيسة المنطقية والميزان القرآني، يقدر ابن تيمية أن الله تعالى يبين الحقائق بالمقاييس العقلية والأمثلة المضروبة، ويبين طريق التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين[(٢)]، وينكر على من يخرج عن ذلك كقوله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١]. وقوله سبحانه: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم:٣٥-٣٦]. أي: هذا حكم جائر، لا عادل، فإن فيه تسوية بين مختلفين. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨]. وقوله سبحانه: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ ﴾ [البقرة:٢١٤].

---

(١) «الرد على المنطقيين»، (ص ٣٧١).

(٢) السابق، (ص٣٨٣).

وإذا سأل سائل: إذا كان مما يعرف بالعقل فكيف جعله الله تعالى مما أُرسلت به الرسل؟ هذا السؤال في غير موضعه؛ لأن صاحبه يفترض أن العقل مباين للشرع، وأن ما يعلم بالعقل قسيمًا -أو مقابلًا- للعلوم النبوية، بعبارة أخرى يجعل الأحكام العقلية منفصلة عن العلوم النبوية، فهذه نقلية سمعية وتلك عقلية برهانية.

والإجابة عن هذا السؤال سهلة يسيرة إذا قرأنا القرآن؛ حيث يتبين منه أن الرسل ضربت للناس الأمثال العقلية التي يعرفون بها التماثل والاختلاف؛ فإن الرسل خاطبت الناس بما يعرفونه، ودلت على ما يفهمونه بفطرتهم التي خلقهم الله بها، فليست العلوم النبوية إذن مقصورة على مجرد الخبر كما يظنه أهل الكلام، بل الرسل -صلوات الله عليهم- بينت العلوم العقلية التي بها يتم دين الناس علمًا وعملًا، وضربت الأمثال، وذلك بظهور دور الرسل الذين جاءوا بتكميل الفطرة وإصلاحها، فكملت الفكرة بما نبهتها وأرشدتها عليه مما كانت الفطرة معرضة عنه لأسباب الغفلة، وكذلك تصلح الفطرة وتعيدها إلى طبيعتها إذا قيست بالآراء والأهواء الفاسدة، ويكون دور الرسل أيضًا إزالة الفساد وتذكير البشر لما كانت فطرتهم معرضة عنه[1].

وكانت طريقة السلف الصالح تتلخص في الاستدلال بالأدلة العقلية التي تحتاج إليها في العلم بما لا يقدر عليه غيرهم بإتيانه؛ بل إن غاية ما يذكره المتكلمون والفلاسفة قد جاء القرآن بخلاصته على أحسن وجه، وذلك كالأمثال المضروبة التي يذكرها الله تعالى في كتابه التي وصفها بقوله: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم:٥٨].

ولا يمل ابن تيمية من تكرار القول وإعادته بأن الأمثال المضروبة في القرآن الكريم هي الأقيسة العقلية، ويضيف إلى ذلك ما يدخل فيها مما يسميه المناطقة «البراهين»، وهو

---

(١) ابن تيمية، «الرد على المنطقيين»، (ص٣٨٢).

القياس المؤلف من المقدمات اليقينية، بل إن لفظ البرهان في اللغة أعم من ذلك، كما سمَّى الله آيتي موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ «برهانين»، فقال سبحانه: ﴿ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ ﴾ [القصص:٣٢][1].

(ب) البينات والهدى:

يشرح لنا ابن تيمية معنى البينات والهدى في عبارة جامعة يقول فيها: والرسول صلوات الله عليه وسلامه قد أُرْسِلَ بالبينات والهدى، بين الأحكام الخبرية والطلبية، وأدلتها الدالة عليها، بين المسائل والوسائل، بين الدين وما يقال وما يعمل، وبين أصوله التي بها يعلم أنه الدين الحق.

وهذا المعنى قد ذكره الله تعالى في غير موضع، وبين أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، ذكر هذا في سورة التوبة والفتح والصف.

والهدى هو هدى الخلق إلى الحق، وتعريفهم ذلك، وإرشادهم إليه، وهذا لا يكون إلا بذكر الأدلة والآيات الدالة على أن هذا هدى، وإلا فمجرد خبر لم يعلم أنه حق، ولم يقم دليل على أنه حق، ليس بهدى. وهو سبحانه إذا ذكر الأنبياء -نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وغيره- ذكر أنه أرسلهم بالآيات البينات، وهي الأدلة والبراهين البينة المعلومة علمًا يقينيًا؛ إذ كل دليل لابد ان ينتهي إلى مقدمات بَيِّنَة بنفسها، قد تسمى بديهيات، وقد تسمى

(١) ابن تيمية، «موافقة صحيح المنقول»، جـ(١)، ص(١٤).

وجاء في تفسير الجلالين: (أدخل يدك اليمنى بمعنى الكف في جيبك -وهو طوق القميص، وأخرجها (تخرج) خلاف ما كانت عليه من الأدمة (بيضاء من غير سوء) أي برص، فأدخلها وأخرجها تضيء كشعاع الشمس تغشى البصر (..فذانك) بالتشديد والتخفيف أي: العصا واليد، والآية كاملة: ﴿ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴾ [القصص:٣٢].

ويقول الراغب الأصفهاني: «فالبرهان أوكد الأدلة، وهو الذي يقتضي الصدق أبدًا، لا محالة. قال تعالى: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة:١١١]. قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي: ﴿ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [النساء:١٧٤]». المفردات في غريب القرآن، (ص٤٥).

ضروريات، وقد تسمى أوليات، وقد يقال: هي معلومة بأنفسها؛ فالرسل صلوات الله عليهم بُعثوا بالآيات البينات.

وفي الصحيحين عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ما من نبي من الأنبياء إلا قد أوتي الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**»(١).

ثم يأتي الحديث عن كل من البينات والهدى على حدة.

(جـ) البيِّنات:

وفي الصحيحين عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**ما من نبي من الأنبياء إلا قد أوتي الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًّا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة**».

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة:١٥٩].

فالبيِّنات جمع بَيِّنة، وهي الأدلة والبراهين التي هي بَيِّنة في نفسها، وبها يتبين غيرها، يقال: بين الأمرين؛ أي: تبين في نفسه. ويقال: بين غيره؛ فالبين اسم لما ظهر في نفسه ولما أظهر غيره، وكذلك المبين؛ كقوله: فاحشة مبينة، أو متبينة.

يذكر ابن تيمية أن أهل الكتاب كان عندهم من البينات الدالة على نبوة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحة ما جاء به أمور متعددة؛ كبشارات كتبهم، وغير ذلك فكانوا يكتمونه. قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٤٠]. فإنه كان عندهم شهادة من الله تشهد بما جاء به محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبمثله فكتموها.

---

(١) ابن تيمية، «النبوات»، (ص١٦٥).

فهذا شأن الأدلة؛ فإن مقدماتها تكون معلومة بنفسها كالمقدمات الحسية والبديهية، وبها يتبين غيرها؛ فيستدل على الخفي بالجلي.

(د) الهـــدى:

مصدر هداه هدى، والهدى هو بيان ما ينتفع به الناس ويحتاجون إليه، وهو ضد الضلالة، فالضالّ يضل عن مقصوده وطريق مقصوده، وهو سبحانه بيَّن في كتبه ما يهدي الناس؛ فَعَرَّفهم ما يقصدون وما يسلكون من الطرق، عرفهم أن الله هو المقصود المعبود وحده، وما يُعبَد به، والبينات فيها بيان الأدلة والبراهين على ذلك؛ فليس ما يخبر به ويأمر به من الهدى قولًا مجردًا عن دليله، يؤخذ تقليدًا واتباعًا للظن؛ بل هو مبين بالآيات البينات، وهي الأدلة اليقينية والبراهين القطعية[1].

وقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة:١٨٥] فأنزله هاديًا للناس، وبيناتٍ من الهدى والفرقان، فهو يهدي الناس إلى صراط مستقيم، ويهديهم إلى صراط العزيز الحميد الذي له ما في السموات وما في الأرض، بما فيه من الخبر والأمر، وهو بينات دلالات، وبراهين من الهدى؛ من الأدلة الهادية المبينة للحق، ومن الفرقان المفرق بين الحق والباطل.

(هـ) الفرقــان:

المفرق بين الحق والباطل، والخير والشر، والصدق والكذب، والمأمور والمحظور، والحلال والحرام؛ وذلك أن الدليل لا يتم إلا بالجواب عن المعارض، فالأدلة تشتبه كثيرًا بما يعارضها؛ فلابد من الفرق بين الدليل الدال على الحق، وبين ما عارضه؛ ليتبين أن الذي عارضه باطل؛ فالدليل يحصل به الهدى وبيان الحق، لكن لابد مع ذلك من الفرقان وهو الفرق بين ذلك الدليل وبين ما عارضه، والفرق بين خبر الرب وخبر الذي يخالفه.

---

(١) ابن تيمية، «النبوات»، (ص١٦٢).

فالفرقان يحصل به التمييز بين المشتبهات، ومن لم يحصل له الفرقان كان في اشتباه وحيرة، والهدى التام لا يكون إلا معه فرقان، فلهذا قال أولًا: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾، ثم قال: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾.

أما صلة البينات بالهدى والفرقان فإنها تتضح بضرب المثال الآتي: فالهدى مثل أن يؤمر بسلوك الطريق إلى الله، كما يؤمر قاصدٌ بسلوك طريق مكة مع دليل يوصله، والبينات ما يدل ويبين أن ذلك هو الطريق، وأن سالكه سالك للطريق لا ضال، والفرقان أن يفرق بين ذلك الطريق وغيره، وبين الدليل الذي يسلكه ويدل الناس عليه، وبين غيرهم ممن يدعي الدلالة وهو جاهل مُضِلّ، وهذا وأمثاله مما يبين أن في القرآن الأدلة الدالة للناس على تحقيق ما فيه من الأخبار والأوامر كثير.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنزل في كتبه البينات والهدى؛ فمن تصور شيئًا على وجهه؛ فقد اهتدى إليه، ومن عرف دليل ثبوته؛ فقد عرف البينات، فالتصور الصحيح اهتداء، والدليل الذي يبين التصديق بذلك التصور بينات، والله أنزل الكتاب: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1].

كذلك فإن القرآن سُمِّيَ: (فرقانًا)؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الفرقان:٤١]. ونوعا الفرقان هما:

(أ) فرقان الهدى والبيان؛ أي أنه هدًى في قلوبهم، يعرفون به الحق والباطل.

(ب) وفرقان النصر والنجاة، كما ظهر في موقعة بدر.

وهما نوعا الظهور للإسلام في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الصف:٩]؛ أي: يظهره بالبيان والحجة والبرهان، ويظهره باليد والعز والسنان. وكذلك السلطان في قوله قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا﴾

---

(١) النبوات، (ص١٦٢).

[الإسراء:٨٠]. فهذا النوع من الحجة والعلم. وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ [غافر:٥٦]. وقال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍ﴾ [النجم:٢٣].

وقد فسر السلطان بسلكان القدرة واليد، وفسر بالحجة والبيان.

كذلك فإن استقراء أنواع الفرقان الواردة بالقرآن الكريم يتضح -كما يذكر ابن تيمية- أنها تتضمن من جوانب عدة:

١- فمنها أنه فرق بين أهل الحق المهتدين المؤمنين المصلحين أهل الحسنات، وبين أهل الباطل الكفار والضالين المفسدين أهل السيئات؛ كقوله تعالى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص:٢٨]. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ [القلم:٣٥-٣٦]. وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ [السجدة:١٨].

٢- وأعظم من ذلك أنه الفرق بين الخالق والمخلوق، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:١٧][١].

٣- وهو سبحانه كما يفرق بين الأمور المختلفة، فإنه يجمع ويسوي بين الأمور المتماثلة؛ إذ أخبرنا الله تعالى بأن سنته لن تتبدل ولن تتحول، وسنته هي عادته التي يسوي فيها بين الشيء وبين نظيره في الماضي، وهذا يقتضي أنه عَزَّوَجَلَّ يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة:

قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ [القمر:٤٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات:٢٢]. أي: أشباههم ونظراءهم[٢].

---

(١) «الفرقان بين الحق والباطل»، (ص١٣-١٦).

(٢) السابق (ص١٩).

الاعتبار[1]:

ويمضي ابن تيمية في الاستشهادات بالآيات القرآنية الدالة على ذلك، فإن ما أمر به من الاعتبار في كتابه يتناول قياس الطرد وقياس العكس، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٠٥]. وقال سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣]؛ فإنه لما أهلك المكذبين للرسل بتكذيبهم، كان من الاعتبار أن يُعلم أن من فعل مثل ما فعلوا أصابه مثل ما أصابهم، فيبقى تكذيب الرسل حدًّا من العقوبة، وهذا قياس الطرد. كما يعلم أن من لم يكذب الرسل لا يصيبه ذلك، وهذا قياس العكس، وهو المقصود من الاعتبار بالمكذبين، والاعتبار يكون بهذا وبهذا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]. وقال: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران:١٣][2].

ولهذا المدلول يرى ابن تيمية أن كثرة الإشارة إلى قصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وفرعون في القرآن الكريم يرجع إلى الاعتبار في كل مرة تُذكر فيها. إنه ينكر فكرة (التكرار) في القرآن؛ لأن المقصود من إعادة القصة –سورة وآيات متعددة– هو توضيح عبرة جديدة لم يُشَر إليها في موضع آخر من الكتاب، ومن هنا فليس في القرآن تكرار أصلًا.

أما أهمية قصة موسى وفرعون فترجع إلى أنهما في طرفي نقيض في الحق والباطل؛ فإن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بلغ الغاية القصوى من الإيمان، وكَلَّمَهُ الله تَكْلِيمًا بلا حجاب، بينما

(١) ومعنى الاعتبار: العبور بالفكر في المخلوقات إلى قدرة الله الخالق؛ فيسبح عند ذلك ويقدس ويعظم، وتفسير حركاته باليدين والرجلين كلها لله تعالى، ولا يمشي فيما لا يعنيه، ولا يفعل بيده شيئًا عبثًا؛ بل تكون حركاته وسكناته لله تعالى، فيُثاب على ذلك في حركاته وسكناته وفي سائر أفعاله. شرح الأربعين النووية: الحديث الثامن والثلاثون.

(٢) «صون المنطق»، جـ(٢)، ص(١٥٦).

كفر فرعون بالربوبية وبالرسالة، وكان موقفه أشد إنكارًا من باقي المخالفين للرسل؛ لأن أكثرهم لا يجحدون وجود الله -وربما يقصد هنا أنهم مشركون-، كذلك لم يكن للرسل من التكلم لرب العالمين.

فصارت قصة موسى وفرعون أعظم القصص وأعظمها اعتبارًا لأصل الإيمان ولأصل الكفر، ولهذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقص على أمته عامة عن بني إسرائيل، وكان يتأسى بموسى في أمور كثيرة، ولذا بشر بقتل أبي جهل يوم بدر، قال: «**هذا فرعون هذه الأمة**»[(١)].

اللــزوم:

ويرى ابن تيمية أن الحقيقة المعتبرة في كل دليل هي (اللزوم)؛ فمن عرف أن هذا لازم لهذا، استدل بالملزوم على اللازم بغير ذكر لفظ اللزوم ولا تصور معنى هذا اللفظ؛ لأن الإنسان بفطرته السوية يعرف أن كل شيء مصنوع لابد له من صانع، وكثيرًا ما يستخدم الناس أمثال هذه القضية بقولهم: «إن كذا لابد له من كذا، أو إنه كان كذا كان كذا»، وبغير استخدام لفظ (اللزوم) فإن الصياغة نفسها تتضمن العلم باللزوم باعتباره حقيقة معتبرة. كذلك الأمر في المخلوقات؛ فإن كل ما في الوجود فهو آية لله تعالى، مفتقر إليه محتاج إليه، لابد له منه، فيلزم من وجود الصانع. والآية القرآنية واضحة الدلالة على معنى اللزوم، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥]. وفي الصحيحين عن جبير بن مطعم أنه لما قدم في فداء الأسرى عام بدر، سمع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في المغرب بسورة (الطور)، قال: فلما سمعت قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور:٣٥] أحسست بفؤادي يتصدع.

---

(١) «فتاوى ابن تيمية»، جـ(١٢)، ص(٩).

ولا شك أن في الآية تقسيمًا حاصرًا بين أمرين لا ثالث لهما، فهل خُلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا ممتنع بالبداهة، أم خلقوا أنفسهم؟ فهذا أشد امتناعًا. فعلموا أن لهم خالقًا خلقهم، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. ويمضي ابن تيمية في شرح الاستدلال العقلي في هذه الآية بقوه: «ذكر الدليل بصيغة استفهام الإنكار ليبين أن هذه القضية التي استدل بها فطرية، بديهية، مستقرة في النفوس لا يمكن إنكارها؛ فلا يمكن لصحيح الفطرة أن يدعي وجود حادث بدون محدث، ولا يمكنه أن يقول: هو أحدث نفسه»[١].

قياس الأَوْلَى: (على وزن الأُخْرَى):

كان من أسباب النقد العنيف الذي وجهه شيخ الإسلام للمنطق الأرسطاليسي ارتباطه الوثيق بالميتافيزيقا أو بالإلهيات؛ فالوجود عند الفلاسفة هو وجود مطلق كلي، ينقسم إلى أنواع: مثل قسمته إلى واجب وممكن، وقديم ومحدَث، وجوهر وعرض[٢]. ويرى ابن تيمية أنه باستخدام القياس الأرسطي في الاستدلال على (واجب الوجود) تَبَارَكَ وَتَعَالَى فلا يدل على ما يختص به عَزَّ وَجَلَّ، وإنما يدل على أمر مشترك كلي بينه وبين غيره؛ لأن قياس الشمول تستوي أفراده، والله تعالى ليس كمثله شيء؛ إذ لا يجتمع سبحانه هو وغيره تحت (كُلٍ) تستوي أفراده.

وبناءً على ذلك، فإن وصف الفلاسفة (للوجود) -الذي هو موضع العلم الإلهي عندهم- إما أن يكون هو (الواجب) أو (الممكن). وبالمقارنة بينهما فلا شك أن وجود (الواجب) أكمل من وجود (الممكن)، مع اتفاق الاثنين في مُسَمَّى (الوجود)، فالوجود (معنى كلي مشترك)، ولكن هذا (الوجود الكلي) إنما يكون كليًّا في الذهن وليس خارجه.

ويصل ابن تيمية من هذا التدرج في التحليل المنطقي إلى نتيجة مؤداها أن العلم

---

(١) «الرد على المنطقيين»، (ص٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) دكتور محمد رشاد سالم، «مقارنة بين الغزال وابن تيمية»، ص(٣٤)، ط دار القلم بالكويت، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

(بالوجود) كمعنى من المعاني العامة، ليس علمًا بموجود في الخارج -أي: خارج الذهن- لا بالخالق ولا بالمخلوق، وإنما هو علم بأمر مشترك كلي تشترك فيه الموجودات بحيث لا يوجد إلا في الذهن[1].

وهذا بخلاف (العلم الأعلى) عند المسلمين، فإنه العلم بالله تعالى الذي هو نفسه أعلى من غيره من كل وجه، والعلم به أعلى العلوم من كل وجه، والعلم به أصل لكل علم.

ولاختصاص الله تعالى بصفات الكمال بالإطلاق. فقد استعمل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الاستدلال عليه تعالى قياس الْأَوْلَى (على وزن الْأَحْرَى)، لإثبات أن كل ما ثبت لغيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من كمال فثبوته له بطريق الأولى، وما تنزه عنه من النقائص فتنزهه عنه بطريق الأولى.

والآيات الكثيرة في القرآن في هذا الصدد تستند إلى قيام الأولى، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الروم:٢٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل:٥٧-٦٠][2].

---

(١) ابن تيمية، «الرد على المنطقيين»، (ص١٣٠، ١٣١).

الميتافيزيقيا في أصل مدلولها هي: «ميتا»؛ أي: بعد، و«فيزيقيا»؛ أي: الطبيعة، من المقطعين اليونانيين لغةً، واشتهر هذا الاسم وأصبح يطلق على ما كان أرسطو يعني به «الفلسفة الأولى» التي عَرَّفَها تارةً بأنها العلم الموجود من حيث هو موجود، وتارةً أخرى بأنها العلم بالمبادئ والغايات الأخيرة. ولما رأى الفلاسفة المسلمون أن لُبَّ كتاب أرسطو -وهو مقالة اللام يبحث في «الإله»- المحرك الذي لا يتحرك، فقد سموا الكتاب والعلم الذي ينظر فيه الكتاب باسم (الإلهيات والعلم الإلهي)، من قبيل إطلاق الخاص على العام، أو تسمية الكتاب بأشرف جزء منه، ودرجت منه هذه التسمية عند الفارابي وابن سينا، فقالا بالعلم الإلهي.

من كتاب الدكتور أحمد فؤاد الأهواني: الكندي فيلسوف العرب، ص(٢٧٥-٢٧٦)، سلسلة أعلام العرب، رقم (٢٦)، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر سنة ١٩٦٤م.

(٢) ابن تيمية، «الرد على المنطقيين»، (ص١٥٠-٣٥٠).

ويستخدم القرآن الكريم أيضًا قياس الأولى في بيان إمكان المعاد:

(أ) فتارةً يخبر عمن أماتهم ثم أحياهم، كما أخبر عن قوم موسى بقوله: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة:٥٥-٥٦].

وكما أخبر عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كان يحيي الموتى بإذن الله.

وبنفس الطريقة أخبر عن أصحاب الكهف أنهم لبثوا نيامًا ﴿ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [الكهف:٢٥]. وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ [الكهف:٢١].

وقد ورد تفسير هذه الآية عن غير واحد من العلماء أن قضية البعث أُثيرت في ذلك الزمان أيضًا فتنازع الناس حول حقيقته: هل هو بالأرواح، أم بالأرواح والأجساد؟! ولذلك أعثر الله تعالى هؤلاء على أهل الكهف، وعلموا أنهم بقوا نيامًا لا يأكلون ولا يشربون ثلاثمائة سنة شمسية، وهي ثلاثمائة وتسع هلالية، فأعلمهم الله بذلك إمكان إعادة الأبدان[1].

(ب) وتارةً يستدل القرآن الحكيم على البعث بالنشأة الأولى، وأن الإعادة أهون من الابتداء، كقوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس:٧٨-٧٩]. وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم:٢٧].

(جـ) وتارةً يستدل على إمكان ذلك بخلق السموات والأرض؛ فإن خلقها أعظم من إعادة الإنسان، كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس:٨١]. وقوله سبحانه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى

(١) ابن تيمية، «الرد على المنطقيين»، (ص٣١٨-٥٢٩).

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف:٣٣].

(د) وتارةً يستدل على إمكانه بخلق النبات، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف:٥٧].

وقوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر:٩].

نقد قياس المنطقي:

استخدم ابن تيمية ما تقدم من نقد للقياس المنطقي الأرسطاليسي للوصول إلى إثبات أنه لا يفيد العلم، ولا يدعي شيخ الإسلام أن النقد نقده، ولكن يرجعه إلى نظار المسلمين مع كثرة التعب، كما ليس فيه فائدة علمية؛ بل كل ما يمكن علمه بدون، ففيه تطويل كثير متعب، فإنه متعب للأذهان مضيع للزمان. ويضرب مثالًا على ذلك بمن يريد مثلًا الوصنول إلى مكة أو غيرها من البلاد، فإذا سلك الطريق المستقيم المعروف وصل في مدة قريبة بسعي معتدل، ولكن إذا قيض له من يدور به طرقًا دائرة، ويسلك به مسالك منحرفة يتعب تعبًا كثيرًا حتى يصل إلى الطريق المستقيم -إن وصل-، وإلا فقد يصل إلى غير المطلوب، فيعتقد اعتقادات فاسدة، وقد يعجز بسبب ما يحصل له من التعب والإعياء، فلا هو نال مطلوبه ولا هو استراح!

ويشارك ابن تيمية نظار المسلمين في وصف هذا القياس بأنه استعمال لطرق غير فطرية، ويعذب النفوس بلا منفعة، كما أن القياس الأرسطي لا يفيد العلم بشيء معين من الموجودات؛ بل الأيسر والأبين العلم بالمعينات لا الكليات[١].

(١) «الرد على المنطقيين».

فصل

وموضوع هذا الفصل هو التعريف بالسَّلف، وشرح قواعد المنهج السلفي الذي يميزهم عن غيرهم، مع بيان مفصَّل أيضًا لمفهوم السلفية في العصر الحديث؛ وذلك لأن الغزو الثقافي الغربي الذي ابتليت به الأمة طوال نحو قرن من الزمان، كان أشد ضراوةً وأبلغ فتكًا بشخصية المسلم من الغزو العسكري، وما يزال يؤدي دوره بعد انسحاب الجيوش، وهو ما أقرَّ به الباحث الفرنسي سيرج لاتوش إذ يقول: أروع ما حققه الاستعمار هو مهزلة تصفية الاستعمار، لقد انتقل البِيض إلى الكواليس، لكنهم لا يزالون مخرجي العرض المسرحي الذين يعملون على تدفق صور وكلمات وقيم أخلاقية وقواعد قانونية واصطلاحات سياسية.. وغيرها، من خلال وسائل الإعلام: صحف، إذاعات، تليفزيونات، أفلام، كتب، اسطوانات، فيديو، دش. وكلها تشكل الجانب الأكبر من الإنتاج العالمي، ويضيع في معامل يسيطر عليها حسب معايير الغرب ومواصفاته[1].

وقد فتن هذا الغزو الضاري قطاعًا كبيرًا من المثقفين، وتوهموا أن تقليد حضارة الغرب سيؤدي إلى قيام نهضة وكفالة السعادة، وإزاء هذه الفتنة رأينا من الواجب إقناعهم بأن أصول الإيمان هي الكفيلة بالوصول إلى الهدف المنشود.

قواعد المنهج السلفي في أصول الدين:

لا بأس من إعادة التعريف بالسلف مرة أخرى توطئة لتوضيح قواعد المنهج عندهم في (أصول الدين)؛ فالمراد تاريخيًّا بالسلف: الصحابة والتابعون من أهل القرون الثلاثة الأولى. فأصبح مذهب السلف علمًا على ما كان عليه هؤلاء ومن تبعهم من الأئمة؛ كالأئمة الأربعة، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والليث بن سعد، وعبد الله بن

(١) سيرج لاتوش، «تغريب العالم»، تعريب: خليل كلفت، ط دار العالم الثالث بالقاهرة، ١٩٩٢م.

المبارك، والبخاري، ومسلم، وسائر أصحاب السنن، والذين اتبعوا طريق الأوائل جيلًا بعد جيل، دون مَنْ وُصِفَ بالبدعة؛ كالخوارج والشيعة والمرجئة والقدرية والمعتزلة وغيرهم(١).

وظهر مصطلح «السلف»، حيث دار النزاع حول أصول الدين بين الفرق الكلامية، ومحاولة الجميع الانتساب إلى السلف الصالح، فكان ينبغي ظهور قواعد واضحة للاتجاه السلفي تميزه من مدعي الانتساب للسلفية، ويُسترشَد بها أيضًا للفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية.

القاعدة الأولى: تقديم الشرع على العقل:

أول هذه القواعد: اتباع السلف الصالح في الفهم والتفسير؛ ففي الصفات الإلهية إثباتها بلا كيف، وفي المسائل الكلامية الأخرى اتخاذ الأوائل قدوة في النظر والعمل. فالقرآن والحديث أولًا، ثم اقتداء بالصحابة؛ «لأن الوحي كان ينزل بين أظهرهم؛ فكانوا أعلم بتأويله من أهل العصور التالية، وكانوا مؤتلفين في أصول الدين، لم يفترقوا فيه ولم يظهر فيه البدع والأهواء»(٢).

ومن هنا تظهر السمة الغالبة على أصحاب المنهج السلفي؛ فهم أهل الحديث وحفَّاظه ورواته وعلماؤه المتبعون للآثار؛ لأنها سبيل المؤمنين، مستشهدين بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]. فيتميزون عن المتكلمين بأنهم يبدأون بالشرع، ثم يخضعون العقل له، ومن ثَمَّ فإنهم يقدمون الرواية على الدراية والنظر العقلي، ولكنهم يدافعون عن أنفسهم بالقول: إن العقل يتفق مع الشرع، وإن الأوائل

(١) أحمد بن حجر آل بوطامي آل بن علي، قاضي المحكمة الشرعية بقطر، «العقائد السليفة بأدلتها النقلية العقلية»، (ص١).

(٢) «عقائد السلف»، (ص٣٠٩).

كانوا أكثر فهمًا ودراية للشرع عن غيرهم، فالمعقول عندنا ما وافق هديهم، والمجهول ما خالفهم، ولا سبيل إلى معرفة هديهم وطريقتهم إلا هذه الآثار(١).

وتظهر أصول العقيدة لديهم في الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه من غير زيادة عليها ونقص منها، ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه بصفات المخلوقين؛ بل أمَرُّوها كما جاءت في كتاب الله أو على لسان رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وردوا علمها إلى قائلها(٢).

ولابد أن نفهم من هذا السياق طريقتهم في إخضاع العقل للنص لا العكس، مخالفين بذلك منهج المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة الذين قدموا العقل وأولوا النصوص تبعًا، مستدلين بما سبق أن استدل به شيخ الإسلام من قوله تعالى: ﴿ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ ﴾ [الأحقاف:٤]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء:٦١].

ففي تفسير الآية الأولى يرى ابن تيمية أن الأثارة هي الرواية أو الإسناد.

وقد استدل بمثل هاتين الآيتين؛ لأن بهما من أنواع العبر ومن الدلالة على ضلال من يحاكم إلى غير الكتاب والسُّنَّة، وعلى نفاقه، وإن زعم أنه يريد التوفيق بين الأدلة الشرعية وبين ما يسميه هو عقليات من الأمور المأخوذة من بعض الطواغيت المشركين وأهل الكتاب(٣).

أليس الاعوجاج في التفكير الذي يشكو منه ابن تيمية هو نفسه الذي يتخذه أرباب النظر العقلي المعاصرون، الذين يحاولون إخضاع الشريعة لمتطلبات العصر المتجددة في زعمهم؟!

---

(١) «نقض المنطق»، (ص٣٠٩).

(٢) ابن تيمية: «نقض المنطق»، (ص٢).

(٣) «فتاوى ابن تيمية»، جـ(١)، ص(٣٨٣).

وقد تأثر تفسير الأستاذ: محمد عبده، لجزء «عم» بهذه النظرة تأثيرًا واضحًا، وتفسير تلميذه الشيخ رشيد رضا، وتفسير تلميذه الأستاذ الشيخ المغربي لجزء «تبارك»، حتى صرح مَرَّات بوجوب تأويل النص ليوافي مفهوم العقل! وهو مبدأ خطر؛ فإطلاق كلمة «العقل» يراد الأمر إلى شيء غير واقعي! فهناك عقلي وعقلك، وعقل فلان وعقل فلان، وليس هناك عقل مطلق لا يتناوبه النقص والهوى والشهوة والجهل، يحاكم النص القرآني «مقرراته». وإذا أوجبنا التأويل ليوافق النص هذه العقول الكثيرة، فإننا ننتهي إلى فوضى[١].

إن الاجتهاد الصحيح لا يضع أمام عينيه رأيًا أو نظامًا يلوي رقاب النصوص الإسلامية حتى يسوقها إليه، ولكنه يستوحي النصوص الإسلامية حكمها في هذه الآراء والنظم.

والفرق شاسع بينهما؛ إذ إن أحدهما يسيطر على النصوص والثاني يخضع للنصوص، أحدهما يُبْرِز بالنصوص الإسلامية عوج الحياة، والآخر يُقَوِّم بنصوص الشريعة عوج الحياة.

وأصحاب الاتجاه التغريبي بالذات يحكمون بهذه الوسيلة المعوجة آراء دخيلة في الدين؛ فيفسرونه في ضوء ما يذهب إليه مفكرو الغرب وفلاسفته[٢].

وهناك أيضًا دليل منطقي للبرهنة على ضرورة تقديم الشرع على العقل يستخلصه ابن تيمية بعد ضرب الأمثال. فيذكر أنه إذا حدث نزاع بين أصحاب المهن المختلفة كالحراثة والبناء والخياطة والسباحة وغير ذلك من الصناعات، احتكم المتنازعون إلى الأعلم منها.

---

(١) سيد قطب، «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته»، دار الشروق، (ص٢٢). وننصح بمراجعة هذا الكتاب القيم بتوسع.

(٢) د/ محمد حسنين، «اتجاهات هَدَّامَة في الفكر العربي المعاصر»، (ص٣٠، ٣١).

ومن المعلوم أن تفوق الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذوي العقول[١] أعظم من تفوق أهل العلم المتخصصين بالمهن العلمية والعملية والعلوم العقلية الاجتهادية كالطب مثلًا لسائر الناس؛ لأن من الناس من يمكنه تعلم تلك المهن العلمية والعملية كعلم المتخصصين فيها، ولكن لا يمكن من لم يجعله الله رسولًا إلى الناس أن يصير بمنزلة من جعله الله رسولًا إلى الناس.

فإذا تقرر أن النبوة لا تُنال بالاجتهاد -كما هو مذهب أهل الملل-، أو تنال عند ملاحدة الفلاسفة باكتساب، وهي أصعب الأمور بالمقارنة بتعلم الصناعات والعلوم العقلية، ففي كلتا الحالتين إذ علم الرجل بالعقل أن هذا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلم أنه أخبر بشيء، ووجد في عقله ما يعارضه في خبره، كان عقله يوجب عليه التسليم إلى من هو أعلم منه، وأن لا يُقَدِّم رأيه على قوله؛ لعلمه أن عقله قاصر بالمقارنة به، وأنه أعلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته واليوم الآخر منه، وأن التفاوت بينهما في العلم بذلك أعظم من التفاوت الذي بين العامة والأطباء.

ثم يمضي ابن تيمية في ضرب المثال بالذهاب إلى طبيب -حتى لو كان يهوديًّا-؛ لأن عقل المريض يوجب الانقياد له لبراعته في مهنته، فيطيعه فيما يأمره به من تناول الأطعمة والأدوية، أو الامتناع عن بعض الطعام والشراب، ويطيعه في تناول الدواء أو عملية جراحية مع ما في ذلك من الآلام والمكابدة، لعلمه بأن الطبيب أعلم منه، وأنه إذا صدقه ونفذ أوامره كان أقرب إلى الشفاء، ومع علمه أيضًا بأن الأطباء يخطئون كثيرًا، وأن كثيرًا من الناس لا يُشْفَى بما يصفه الأطباء؛ بل قد يموت بسبب الأخطاء في التشخيص والعلاج، ومع هذا تقبل أقوالهم، وإن كان ظن المرضى واجتهادهم يخالف وصفهم للمرض وطرق علاجه.

---

(١) ويلاحظ أن هذا ما دفع الأستاذ العقاد إلى كتابه: عبقرية محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن ينبغي التمييز بين «العبقرية» و«النبوة والرسالة».

ويتساءل ابن تيمية في النهاية: «فكيف حال الخلق مع الرسل عليهم الصلاة والتسليم؟! والرسل صادقون لا يجوز أن يكون خبرهم على خلاف ما أخبروا به قط، وأن الذين يعارضون أقوالهم بعقولهم عندهم من الجهل والضلال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال، فكيف يجوز أن يعارض ما لا يخطئ قط بما لم يصب في معارضة قط؟»[١].

القاعدة الثانية: رفض التأويل الكلامي:

فالتأويل عند المتكلمين بعامة يقتضي اتخاذ العقل أصلًا في التفسير مُقَدَّمًا على الشرع، فإذا ظهر تعارض بينهما؛ فينبغي تأويل النصوص إلى مايوافق مقتضى العقل. ولكن السلف على العكس -كما يذكر شيخ الإسلام- احتكموا إلى الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، مكتفين بها، فطوعوا المفاهيم العقلية لها؛ لأن العقل في كتاب الله وسُنَّة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أمر يقوم بالعاقل سواء سُمِّيَ عرضًا أو صفة، ليس هو عينًا قائمة بنفسها كما يعتبره الفلاسفة[٢]. والعقل كما يرى الدكتور الغمراوي يعجز عن الإحاطة بالحقائق التي أوردها الدين؛ «لأن الدين صادر عن خالق الخلق، وقد تناول جميع الفطرة ماضيها وحاضرها ومستقبلها، بالإجمال فيما اقتضت الحكمة الإلهية إجماله، وبالتفصيل فيما اقتضت تفصيله، والعقل الذي يمكن أن يحيط بالفطرة لم يخلقه الله بعد، وإذ عنينا به عقل المجموع، لا عقل الفرد؛ فإن العلم الإنساني الذي يحيط بكل شيء لم يوجد أبدًا، وما زالت الاكتشافات العلمية تمضي في طريقها لتبرهن على أنه مهما ازداد الإنسان علمًا فإنه لن يصل على نهاية العلم أبدًا»[٣].

وقد وقع اختيارنا على النص الأول الوارد عن ابن تيمية الذي حام حول الفكرة، وظهر لنا من النص الثاني الحامل لرأي الدكتور الغمراوي اتفاقهما التام رغم بُعْد الزمن بينهما.

---

(١) «موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول»، جـ(١)، ص(٨٢).

(٢) ابن تيمية، «فتاوى»، جـ(٩)، ص(٢٧٩).

(٣) الغمراوي، «الإسلام في عصر العلم»، (ص١٠٩).

فالأول من أهل القرن السابع/ الثامن الهجري، والثاني معاصر، ونستطيع أن نستشهد بمواقف متشابهة لبعض مفكري السلف؛ كابن حنبل والدارمي والبخاري وغيرهم، فندرك الاتجاه الواحد الذي يربط بينهم جميعًا بالرغم من تغاير ظروف البيئة الثقافية والحضارية، وتباين العصور والأزمنة، واختلاف الأدوار العقلية التي مرت بكل منهم. وإذا شئنا التفصيل فإن هناك عبارة ينبغي التوقف عندها؛ لأنها تعبر لنا عن أحد قواعد المنهج.

يقول ابن تيمية: «... وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم: اعتصامهم بالكتاب والسنة؛ فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يقبل من أحد قط أن يعارض القرآن، لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وَجْدِه؛ فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم...»[١].

وهنا نحن إزاء مواقف متشابهة تتصل بحلقات علماء السلف قديمًا وحديثًا؛ فمنذ أُضطروا لمجابهة المتكلمين، رأينا إمامًا في الحديث والفقه، وهو الإمام أحمد بن حنبل، يكتب للرد على الجهمية والمعتزلة المعاصرين له، وسمى كتابه (الرد على الجهمية والزنادقة)، قال في مقدمته: «الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترةٍ من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى». ويشرح موقف السلف من حيث اتخاذ القرآن ميزانًا لفهم الأصول الإسلامية، فيستطرد قائلًا في وصفهم: «ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين». ويعني بالمبطلين والجاهين الذين أطلقوا عقال الفتنة؛ لأنهم تكلموا بالمتشابه من الكلام؛ فخدعوا جهال الناس بما يشبهون عليهم. كذلك أُضطر البخاري إمام الحديث أيضًا لاستخدام نفس السلاح

---

(١) ابن تيمية، «رسالة الفرقان بين الحق والباطل»، (ص٢٣).

في مواجهة علماء الكلام، فأخرج لنا كتابه (خلق أفعال العباد)، لكي يصحح المفاهيم الخاطئة للجهمية والقدرية الذين أَوَّلوا القرآن، وفسروه طبقًا لأهوائهم، فانبرى لبيان أسباب وقوعهم في الخطأ؛ لأن «أكثر مغاليط الناس من هذه الأوجه الذين لم يعرفوا المجاز من التحقيق، ولا الفعل من المفعول، ولا الوصف من الصفة».

ونكتفي بإيراد هذه الشواهد الدالة على صدوع المفكرين في دائرة السلف لأمر الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات:١].

ولهذا لم يعارض أحد منهم النصوص بمعقوله، فإن أراد معرفة شيء من الدين نظر فيما قاله الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فمنه يتعلم، وبه يتكلم، وفيه ينظر ويتفكر، وبه يستدل. وعلى العكس من ذلك المنهج يقف على الطرف الآخر أصحاب المنهج الكلامي الذين اعتمدوا على ما رأوه، ثم نظروا في الكتاب والسنة؛ فإن وجدوا النصوص توافقه أخذوا بها، وإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضًا، أو حرفوها تأويلا[1]!!

القاعدة الثالثة: الاستدلال بالآيات القرآنية:

ونضيف إلى ما أسلفنا من بيان البراهين القرآنية، الاستدلال بالآيات:

١- الآيـات:

للقرآن الحكيم طريقة في الاستدلال، منها: حَثُّ الناس على النظر في ملكوت السموات والأرض، وحضه على كشف أسرار مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والإشادة بالعلم والعلماء.

ولا يسع الدارس لتاريخ الفكر لدى المسلمين في العصور الأولى إلا الإقرار بأنهم اكتفوا بالقرآن الكريم -إلى جانب السُّنَّة- في إتخاذه دليلًا هاديًا في كافة أمورهم،

---

(١) ابن تيمية، «رسالة الفرقان بين الحق والباطل»، (ص٤٧).

فاستغرقوا فيه تلاوةً وحفظًا، وعكفوا على تفسيره، ونفذوا أحكامه، واستنبطوا من آياته قواعد النظر العقلي، واستمدوا منه حقائق عالم الغيب.

وما من مسألة من المسائل الكلامية والفلسفية التي خاض فيها الخائضون في العصور التالية -كما يرى شيخ الإسلام- إلا وكانت قد أُوضحت في القرآن؛ فقد أمد المسلمين بتقريرات وبينات عن الذات الإلهية وصفاتها، ومسائل التوحيد والنبوات واليوم الآخر، الإنسان وبدء خلقه ومصيره، وموقفه من الكون، الأمم السابقة ومواقفهم من أنبيائهم، الماضي السحيق وتاريخ الأمم، وعن حقائق عالم الغيب كالملائكة والجن، إلى غير ذلك من الوضوعات التي كانت -وستظل- مثار التساؤل والبحث في ميدان الفكر الإسلامي.

والآيات القرآنية كثيرة تجل عن الحصر، ولكننا نجتزئ الأمثلة هنا للإشارة إلى بعضها، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:٢٠-٢١].

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور:٣٥-٣٦].

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم:١٠].

وجاء الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤيدًا بالحجج العقلية كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣].

فأخبر سبحانه أن الكفار لا يأتونه بقياس عقلي لباطلهم إلا جاء الله بالحق، وجاءه من البيان والدليل وضرب المثل بما هو أحسن تفسيرًا وكشفًا وإيضاحًا للحق من قياسهم[١].

وتعددت طرق القرآن الكريم في دعوة الإنسان إلى الإيمان بالله؛ فهو تارةً يخاطب عقله، ويقنعه بالمنطق، ويقدم له الدليل كقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [الواقعة:٥٧-٦٠].

وتتسم هذه الآيات كما يرى المتدبر إياها أنها تخاطب الإنسان بأسلوب باهر، لا يقتصر على جفاف المنطق وقوانينه، ولكنه متدفق بالحيوية وضرب الأمثلة المستمدة من حياة الإنسان وما يحيط به، مهما اختلف جنسه أو بيئته أو عصره؛ بل إن جميع الأدلة المطروقة في علم الكلام وفي فلسفة ما وراء الطبيعة مبثوثة في القرآن، ولكن بأسلوب يصلح لمخاطبة الخاصة والعامة، كل بقدر طاقته كما يذكر الشاطبي[٢].

وأيضًا فإن الآيات القرآنية تتضمن الأدلة والبراهين على ما يبين الحق؛ فهي آيات من وجوه متعددة، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس:١٠١].

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ [الكهف:٥٦]، ففرق بين الآيات الدالة على أنها دلائل للرب وتُعْلَم بالعقل، وبين النذر؛ أي: الإخبار عن استحقاق العصاة من العذاب؛ أي إن الآيات تُعلَم دلالتها بالعقل، والأنبياء جاءوا بالآيات، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥][٣].

(١) ابن تيمية، «نقض المنطق»، (ص٨٩).
(٢) محمد المبارك، «العقيدة في القرآن»، (ص٢٢).
(٣) ابن تيمية، «النبوات»، (ص١٧٣).

وفي معنى الآية -كما يذكر شيخ الإسلام- ثلاثة أقوال: أحدها أنها علامة، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الجاثية:٦]، فهي آية من آيات الله؛ أي: علامة من علاماته، ودلالة من أدلة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وبيان من بيانه. وقيل: لأنها جماعة حروف من القرآن. والقول الثالث أنهاسُميت آية لأنها عجب، قال تعالى: ﴿كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾ [الكهف:٩]. فإن كانت الآيات علامات؛ فمنها المألوف المعتاد، ومنها الخارج عن المألوف المعتاد[١].

وتدل آيات الله على أنها علامات ودلالات على الله عَزَّوَجَلَّ وعلى ما أراد، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة:٢٥٢]. وتدل أيضًا على على أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادق؛ لأنها مما لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثلها؛ فقد عجزوا أمام تحدي الإتيان بمثلها[٢]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة:١٥٩]. في الآية جمع بينة وهي الأدلة والبراهين، والهدى هو بيان ما ينتفع به الناس، فَبَيَّن سبحانه ما يهدي الناس، فعرفهم أن الله هو المقصود المعبود[٣].

إذا كان الدليل لابد أن ينتهي إلى مقدمات بَيِّنَة بنفسها، وتسمى بديهيات أو ضروريات أو أوليات؛ إذ إنها معلومة بأنفسها، مثال ذلك: أنه إذا خاطب الله جنس الإنس ذكر جنس الأنبياء، وأثبت جنس ما جاءوا به، وإذا خاطب أهل الكتاب المقرِّين بنبوة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ خاطبهم بإثبات نبي بعده.

ومن الأدلة القرآنية: الاستدلال على الخالق عَزَّوَجَلَّ بخلق الإنسان؛ لأن كون الإنسان حادثًا بعد أن لم يكون مولودًاومخلوقًا من علقة، ومعلوم أن من رأى العلقة

---

(١) ابن تيمية، «نقض المنطق»، (ص١٩).
(٢) ابن تيمية، «نقض المنطق»، (ص١٧٣).
(٣) نفس المصدر، (ص١٦٢).

قطعة من دم، فقيل له: هذه العلقة يصير منها الإنسان. فقد يتعجب، ولكنه دليل عقلي مشاهد ملموس يعلمه البشر كافة بعقولهم، سواء أخبر به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو لم يخبر، فهو إذن دليل عقلي؛ لأن بالعقل تُعلَم صحته، وبالإضافة إلى كونه عقليًّا فإنه دليل شرعي أيضًا؛ لأن الشارع استدل به[1]، وأمر أن يُستدل به.

ومن هذا القبيل أيضًا الاستدلال على البعث وإعادة الخلق بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ على الخلق ابتداءً[2].

بهذه القاعدة وقف السلف في وجه المتكلمين والفلاسفة، واستعاضوا بالأدلة القرآنية عن التأويلات الكلامية لدى شيوخ المعتزلة والأشاعرة، وكان ابن تيمية من أدق المستخدمين لهذه القاعدة، ثم امتدت طريقته السلفية حتى وقتنا هذا، -والقرآن كما نعلم لا تنقضي عجائبه- فإذا نظرنا إلى آياته بمنظار العلماء المعاصرين أيضًا؛ إذ الإعجاز العلمي في القرآن طريق مناسب؛ لأننا نعيش مبهورين من رؤية الاكتشافات العلمية المتوالية، ولو عدنا لآيات الله القرآنية نتدبرها لدلتنا على توافقها مع آياته الكونية، وتحتاج منا إلى إعمال فكر ونظر؛ فقد اقتضت الرحمة الإلهية أن يدل القرآن بنفسه في سهولة ويسر على أنه من عند الله، فيجتمع داعي الفطرة مع الدليل النظري لكل من طلب الحق بالقدر المشترك بين الناس من العقل والإخلاص.

وعلى سبيل المثال لا الحصر: تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ [النازعات:٢٩]. إن المفسرين في الأزمنة الماضية فسروا الليل بهذا الذي يعرفون في الأرض، مع أن الضمير في ﴿لَيْلَهَا﴾ راجع إلى السماء المذكورة في قوله: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧]. ثم جاء العلم فاستنبط أن السماء إذا جاوزنا جو الأرض هي سوداء حالكة

---

(١) «النبوات»، (ص٥٢).

(٢) «نقض المنطق»، (ص١٧٤).

بالنهار والشمس طالعة؛ لأن الضوء ذاته لا يُرى، وإنما يُرى أثره منعكسًا عن المرئيات، ثم شاهد رواد الفضاء السماء حالكة السواد فعلًا، وصوروا الأرض مرئية من القمر، فإذا بالقمر والأرض منيران بأشعة الشمس المنعكسة عنهما، ولكن في سواد حالك عم الصورة(١)!!

كما كشف العلم الحديث عن تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ﴾ [الأنبياء:٣٠]. أن الكون كله كان شيئًا واحدًا قبل أن توجد فيه أرض أو نجم أو سديم، فأصبح لدينا على الأقل ثلاث معجزات يقينية يستيقنها العلم الآن:

أولها: تعدد العوالم فلكيًا.

والثانية: دخانية السماء في البدء.

وتظهر المعجزة الثالثة في: انفصال الأرض عن السماء بعد أن كانت متصلة بها اتصالًا في الأول(٢).

❁❁❁

---

(١) د. الغمراوي، «الإسلام في عصر العلم»، (ص١٧٥-١٧٦).

(٢) ج. محمد جمال الدين ألفندي، «الكون بين الدين والعلم»، (ص٢٢٩)، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر، ١٩٧١م.

فصل

مفهوم السلفية في العصر الحديث:

اتضح لنا مما تقدم أن مدلول السلفية أصبح اصطلاحًا جامعًا يُطلق على طريقة السلف في تلقي الإسلام وفهمه وتطبيقه، ولذا فلم يعد محصورًا في دور تاريخي معين، ولكنه ممتد إلى العصر الحاضر، وبواسطته نصل إلى الفهم الصحيح للعقيدة الإسلامية.

وبعد أن تكلمنا عن قواعد المنهج السلفي، أصبح من السهل الاستدلال على أصحاب هذا المنهج على طول المراحل التاريخية، بما في ذلك العصر الحديث أيضًا، واستخلاص السمات البارزة لاجتهاداتهم، فنذكر منها:

١ - الشمول:

لقد أثرت المناهج الجزئية التي اصطنعها المسلمون في العصور المتأخرة على النظرة الصحيحة الشاملة التي عرفها الأوائل، وكانت نتيجة دراسة جوانب الإسلام المتعددة التي كانت تؤلف في عهد الرسالة وحدة متماسكة لا تنفصل -منعزلًا بعضها عن بعض-؛ فدراسة الجانب الاعتقادي تولاه المتكلمون وعلماء العقيدة، ودراسة الجانب العلمي -سواء أكان في مجال العبادة أم العلاقات الاجتماعية والمعاملات- تولاه الفقهاء، وتولى أهل التصوف والأخلاق الجانب النفسي والأخلاقي، وكل فئة من هذه الفئات أعطت من الإسلام صورة الجانب الذي تولت دراسته، فضاع بذلك الارتباط الحيوي والتأثير المتبادل بين هذه الجوانب، مما أدى إلى تمزق النفسية والعقلية المسلمة وتشتيتها. الأمر الذي ترتب عليه الجهل بالإسلام الحقيقي وإساءة الظن به، وإلى نفور الكثيرين من أبناء العصر الحديث وابتعادهم عنه وإطلاق أحكام خاطئة عليه، واتخاذ مذاهب ومناهج نكدة عن أمم الغرب؛ يظنون أنها تحل مشكلات مجتمعاتهم!!

لذلك نشأت الحاجة إلى عرض الإسلام في صورة مبرأة من الشوائب والتشويه، شاملة لجميع جوانبه وأجزائه، مع ترابطها وحفظ نسبها ومواقعها. هذه الصورة ليست جديدة ولا مبتدعة؛ فالقرآن الكريم كثيرًا ما يعرض الإسلام عرضًا مجملًا شاملًا في الكثير من آياته، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج:٧٧].

وكذلك كان فهم الصف الأول من الصحابة المجاهدين في سبيل رسالة الإسلام، لقد كان فهمهم عميقًا شاملًا. فإذا حللنا مقالة ربعي بن عامر حين دخل على قائد الفرس رستم في القادسية للمفاوضة قبل بدء القتال، لتأكد لنا كيف كان فهمهم لرسالة الإسلام في شمولها وتكاملها.. فبعد أن أراد القائد الفارسي أن يثني القائد المسلم وأصحابه عن القتال بإغرائهم بالمال، كان جواب هذا الصحابي:

ما لهذا جئنا، الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فقد شملت الفقرة الأولى تحرير الإنسان من جميع ألوان العبودية لغير الله، ويدخل في ذلك التحرر السياسي والاجتماعي، وتخليص عبودية الإنسان لله وحده، ويدخل في مضمون الفقرة الثانية الجانب النفسي والأخلاقي الذي يجعل أهداف الإنسان أبعد مدى وأعلى من الأهداف المادية القريبة ذات الإطار الضيق، وتشمل الفقرة الثالثة تقويض الأنظمة الاجتماعية الجائرة، وإقامة نظام اجتماعي عادل، ويشمل ذلك أحكام الإسلام في التشريع المالي والسياسي والاجتماعي[(١)].

وقد أدرك هذا المعنى علماءُ الصدر الأول من الإسلام، وكبار الأئمة المجتهدين المشهورين، وكان في كل عصر من علماء الإسلام مَن يسير على هذا النهج، ومنهم

(١) محمد المبارك، «نظام الإسلام». العقيدة والعبادة، دار الفكر، ١٩٧٣م، ص(١٩-٢١)، بتصرف.

ابن تيمية الذي يقرر أن الشريعة التي بعث الله بها محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جامعة لمصالح الدنيا والآخرة، فيقول:

«والشريعة جامعة لكل ولاية وعمل فيه صلاح الدين والدنيا، والشريعة إنما هي كتاب الله، وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما كان عليه سلف الأمة في العقائد والأحوال والعبادات والأعمال والسياسات والأحكام والولايات والعطيات...».

وبعد ذلك صرح مبيِّنًا أنه ليس للإنسان أن يخرج عن الشريعة في شيء من أموره؛ بل كل ما يصلح له فهو في الشرع من أصوله وفروعه وأحواله وأعماله وسياسته ومعاملته وغير ذلك[1].

وفي العصر الحديث يعمل السلفيون على استئناف الحياة الإسلامية على أساس هذا الفهم، وطبقًا لهذه النظرة الرحبة الفسيحة لكل جوانب الإسلام كمنهج رَبَّاني لا يعتريه نقص.

ولكي ندرج سلامة هذا المنهج في صورته المعاصرة، يكفينا الوقوف على دور مفكري الإسلام وأئمته المتخذين طريقة السلف سبيلًا للارتقاء بالأمة الإسلامية، بالمقارنة بفلاسفة الغرب؛ فقد انقسم هؤلاء بوجه عام في تعليل اضطرابات مجتمعاتهم ومفاسدها، إما إلى عامل سياسي؛ وهم المعتنقون للديمقراطية، أو العامل الاقتصادي؛ وهم أتباع كارل ماركس، أو بسبب الفقر الروحي الذي يقول به توينبي، وكان فرويد يعتقد أن المشكلة ترجع إلى كبت الغرائز. وهكذا فإنهم جميعًا نظروا للمشكلة من جانب واحد، بينما النظرية الجزئية تكون دائمًا عقبة في سبيل الإصلاح.

(١) أحمد بن تيمية، «مجموع فتاوى الإسلام»، ط الرياض، ١٣٨٣هـ، المجلد (١٩)، (ص٣٠٦-٣٠٩).

أما المسلمون السائرون على درب السلف الصالح؛ فقد اتفقوا على قاعدة اضطراد العلاقة بين تقدم المسلمين واستمساكهم بالإسلام، وعلى العكس تدهورهم وضعفهم عند الانسلاخ منه؛ فالعلاقة بينهما علاقة المد والجذر مع الإسلام والإيمان[1].

وظهر إجماعهم أيضًا في صورة نبذ مظاهر البدع والانحرافات وسمات الكهَنوت وصور الخرافات كلها؛ فهذا هو السبيل الكفيل بالنهوض استجابة للحقيقة القرآنية المتكاملة التي تشمل -فضلًا عن العقيدة الصحيحة- مبادئ السلوك والأخلاق، وتنظم حياة الفرد والأسرة، وإقامة أركان الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية؛ لأن السلف الصالح كانوا يفهمون الإسلام ويعملون به وفقًا لهذه القاعدة، وقامت حضارة المسلمين في ذروتها على فهم هذا الأصل الجامع، ورفض تجزئة الإسلام إلى دوائر الفقه والكلام والفلسفة والتصوف، وليسَ بدعًا اتفاقهم في استهداف الارتقاء بالمسلمين عن طريق الإسلام -فَهْمًا وتطبيقًا- في عصرٍ ظن البعض -مُخْطِئًا- أن دور الدين قد انقضى زمنه. ومن أقوى دواعي شجب هذا الزعم تعليل سيد المؤرخين الأوروبين المعاصرين -أرنولد توينبي- الذي حلل أسباب تدهور الغرب بإرجاعها إلى الانسلاخ عن المسيحية، وظل يرفع صوته محذرًا منذرًا بني مقومه، إلى أن مات مُلِّحًا على ضرورة إحياء الإيمان المسيحي إذا أريد لهذه الحضارة الاستمرار.

٢- *التقدم لا الرجوع إلى الوراء*[2]:

يزعم خصوم الإسلام بعامة والسلفية بخاصة أنها دعوة رجعية، وهو زعم خاطئ من جذوره، فلا تتعارض السلفية مع التقدم. وهنا يجب التوقف عند مصطلح التقدم الشائع الآن لتفسيره وبيان مدلوله:

---

(١) أبو الحسن الندوي، «المد والجذر في تاريخ المسلمين» (ص٩٢).

(٢) ورد في بروتوكولات حكماء صهيون تفسير كلمة «التقدم» كما يلي: ولا يوجد عقل واحد من الأُميين يستطيع أن يلاحظ أنه في كل حالة وراء كلمة«التقدم» يختفي ضلال وزيغ عن الحق، ما عدا الحالات التي تشير فيها الكلمة إلى كشوف مادية أو علمية. ص(٨٣)، ترجمة: محمد خليفة التونسي.

(أ) ينبغي التميز بين التقدم في أبحاث العلوم التجريبية وتسخير نتائجها في سبيل إتاحة حياة إنسانية أفضل، وبين الهبوط الروحي الذي تردت إليه الحضارة الأوروبية الحديثة؛ لأننا نرى أن الإنسان وحدة نفسية جسمية، لن تتحقق له سعادته بالفصل بين جانب المادة وجانب الروح في شخصه كما فعل فلاسفة الغرب، بينما الإسلام يعالج الإنسان ككيان متكامل.

(ب) ينبغي ألا نغفل أحداث التاريخ، لا القديم فحسب؛ بل المعاصر أيضًا، الماثل أمام عيوننا، وما زلنا نعاني من آثاره المدمِّرة من جراء استعمار الغرب لنا وهتكه لمبادئ الإنسانية واستنزافه لثرواتنا، وما مصانعه وجيوشه ومدنه ومدارسه وجامعاته إلا نتاج لأموالنا المنهوبة من عَرَق شعوبنا التي رأت على يد الغرب صنوف الهوان، وما زلنا نعاني من آثار تصرفات الغرب المتحضر على أرض فلسطين، وما حدث للمسلمين بالبوسنة والهرسك ما يشيب له الولدان!

وهنا نلاحظ -كما يُلاحظ كلُّ ذي عينين- الفرق الهائل بين المبادئ الأخلاقية الإنسانية التي يتعامل بها الغربيون مع بعضهم البعض، وبين قسوتهم في التعامل مع الشعوب المقهورة، وما أمثلة فيتنام وكمبوديا وفلسطين وجنوب أفريقيا ببعيدة عنا..

فأين التقدم الذي يَدَّعيه أهل الغرب عند تعاملهم معنا؟

التقدم في الإسلام تقدم أخلاقي، والمضي قُدُمًا في تحقيق الرسالة التي نيطت بهذه الأمة، مع الأخذ بأسباب العمران المادي في نواحي الحياة كلها، وقد أُقيمت الحضارة الإسلامية على جناحي العلوم التجريبية والقيم والمبادئ الأخلاقية، وهو ما ميَّزها عن غيرها من الحضارات. يقول المؤرخ الأمريكي ول ديورانت: «إن قيام الحضارة الإسلامية واضمحلالها لمن الظواهر الكبرى في التاريخ، لقد ظل الإسلام خمسة قرون من عام ٧٠٠ إلى عام ١٢٠٠ يتزعَّم العالم كله في القوة، والنظام، وبسطة الملك، وجميل

الطباع والأخلاق، وفي ارتفاع مستوى المعيشة، وفي التشريع الإنساني الرحيم، والتسامح الديني، والآداب، والبحث العلمي، والعلوم، والطب، والفلسفة»[١].

(جـ) إن القديم في تاريخ أوروبا تعبير يُطلق على العصور المظلمة في القرون الوسطى السابقة لعصر النهضة، لذلك فإن رفض أوروبا لتاريخها القديم موقف يتلاءم مع رغبتها في التقدم؛ لأن الماضي يُعد سببًا لتخلفها[٢].

والعكس بالنسبة لنا تمامًا؛ فإن تاريخنا يعبر عن تقدم حضاري في كافة المجالات، وإذا طالبنا بـ«الترقي» إلى مستويات السلف، فإننا نعني بذلك اتخاذ العقيدة الإسلامية بمفهومها الشامل من توحيد الله عَزَّوَجَلَّ والخضوع له وتحكيم شريعته؛ لأنه خالق الإنسان، وهو سبحانه أعلم به من نفسه، وتنفيذ شريعته في الحياة الإنسانية كلها، وما الحقل العلمي إلا أحد ألوان الأنشطة الإنسانية. وقد حقق المسلمون ألوانًا زاهية من الحضارة عندما اتخذوا من الإسلامس عقيدة ومنهاجًا؛ لأنه يحضهم على طلب العلم من المهد إلى اللحد، ويرفع من شأن العلماء فيجعلهم في مرتبة ورثة الأنبياء، ويبين لهم أنه سخر لهم ما في السموات والأرض جميعًا، إلى غير ذلك من الأدلة التي يشهد بها المعاندون قبل المؤيدين.

ولكننا في الوقت نفسه لا نزعم ولا نظن أن عاقلًا يخطر له على بال أن نضع الأمة الإسلامية في متحف التاريخ!! بمعنى أن نطالب بإرجاعها للأخذ بوسائل العصور السابقة في الحياة العمرانية، بأساليبها في الإنتاج والنقل والتعليم والتطبيب وتشييد المدن وتجهيز الجيوش، وبناء المدارس والجامعات والمستشفيات... إلخ.

ويتضح لكل دارس للإسلام أن المفهوم الإسلامي للحضارة أرقى بكثيرَ من التصور الغربي؛ فلا نحن نرضى بتخلف المسلمين الحالي عن تحقيق النموذج الإسلامي، ولا نرضى في الوقت نفسه بتقليد الغرب في فلسفته ومضامينه الفكرية الشاملة.

---

(١) «قصة الحضارة»، جـ(٢)، المجلد (٤)، ص(٣٨٢)، ترجمة: محمد بدران، جامعة الدول العربية.

(٢) «السلفية بين العقيدة الإسلامية والفلسفة الغربية»، دار الدعوة بالإسكندرية.

وللإنصاف نقول: إن هذا التقدم في ناحيته المادية الماثلة أمامنا، ما هو إلا جزء من التصور الحضاري للإسلام، يعلن القرآن الحكيم: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجاثية:١٣]، ويعلن أيضًا: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]. فانتماؤنا للمجتمع الإنساني كله يدفعنا إلى الحرص على تحقيق السعادة له، فلا ننادي بالإسلام بغية السيطرة والاستعمار وامتصاص دماء الشعوب كما يفعلون، ولكننا ننادي به لإنقاذ أنفسنا من مظاهر التخلف وأسباب التأخر؛ لأن الناظر إلينا يستخلص فهمه للإسلام من تصرفاتنا وسلوكنا وأحوالنا، وقد صدق الدكتور سارطون الأمريكي بقوله: «لقد حجب المسلمون الإسلام». ولكي نوجه أنظار العالم إلى أن أحوالنا الحاضرة لا يرتضيها الإسلام، ونعلن أيضًا أن سعادة البشر وطمأنينته في هذه العقيدة الفطرية.

إن أصحاب المنهج السلفي لا يمنعون إطلاقًا فتح النوافذ على العلوم التجريبية، والاستفادة من النتائج العلمية والاكتشافات الباهرة في حقل الاختراعات التي تجمل الحياة وتذلل الصعوبات؛ بل إننا مأمورون بأن نسعى في الأرض؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ سخر لنا ما في السموات وما في الأرض جميعًا كم قدمنا، وأن النتائج العلمية لعلماء الإسلام تشهد بتنفيذهم لأوامر القرآن الكريم.

ولكن الأمر الذي نرى التوقف فيه ودراسته هو إعادة النظر وفحص الإنتاج الثقافي في العلوم الإنسانية؛ لأنه يرتبط بتصورات للحياة تختلف عن تصوراتنا.

هناك مادية وإنكار للرسالات السماوية أو إنحراف عن الوحي الإلهي، نجم عنه شرور وآثار، مما دفع بمفكريهم وفلاسفتهم إلى رفع أصواتهم لحماية مجتمعاتهم من شرورها، ولا شك أن إحصائيات الشرطة ونزلاء المستشفيات العقلية والنفسية وسجلاتها، والجرائم المستمرة الآخذ رسمها البياني في الارتفاع كلها تشير إلى أزمنة طاحنة.

فإذا حاولنا تقليد الأفكار والنظريات، فنحن هنا أمام أصول تخالف عقائدنا ومُثُلَنا اختلافًا تامًّا؛ وقد قامت حضارة اليابان الصناعية على نقل العلوم التجريبية، ولكن مع احتفاظها بعقيدتها ومقومات شخصيتها، فماذا يمنع من قيام نفس الظاهرة ونحن أصحاب العقيدة والمبادئ التي أنارت العالم عدة قرون؟

أما نبذ السلفية بحجة التسابق مع الزمن، واللحاق بكل ما هو جديد فمنهج خاطئ قائم على مفاهيم غريبة متصلة بفلسفتها؛ فإن ما نراه اليوم جديدًا سيصبح غدًا -وحتمًا- قديمًا، وقد كشفت النظرية النسبية عن خطأ تصور الزمن كامتداد لدى اليونان؛ فليست الموازنة إذن بين قديم وجديد موازنة صحيحة، ولكن ينبغي أن تتم بالمقارنة بين الحق والباطل أيًّا كان العصر والزمن؛ لأن القيم لا تتغير ولا تتبدل، ونحن نفهم القصص القرآنية كعبرة لما حدث بالأمم الغابرة، وتجلية حقيقة الدفع بين أصحاب الحق وأهل الباطل؛ فليس الجديد مقدمًا بالضرورة عن سلفه.

وفي الدراسة الشاملة لنموذج الدكتور/ حسين مؤنس عن الحضارات، يذكر أن أهل التاريخ يدرسون الماضي على أنه تجارب الأمم فيما مضى من أحقاب تاريخها، لا على أنها تجارب مضت مع أمس الدابر، فهي أجزاء أو حلقات من سلسلة التجارب الإنسانية التي لا تنتهي، والمؤرخ -على هذا- يدرس ما مضى ليزداد فهمًا لما هو حاضر، فما من حادث أو كائن حي على ظهر الأرض يظهر فجأة من لا شيء، وإنما كل حادث أو كائن مرتبط بما قبله، وكل كائن حي عضد في أسرة من الأحياء بدأت مع بدء الخليقة[1].

---

(١) د/ حسين مؤنس، «الحضارة»، (ص١٢٣)، (عالم المعرفة - الكويت) ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

هذا، وفي عرضه لفكرة (التقدم) يقول: «وعامة المؤرخين اليوم على أن ما يسمى بالتقدم أو مسيرة التاريخ والحضارة إلى الأمام أو إلى الأحسن إنما هو وهم؛ لأن غرائز الإنسان وأخلاقياته المركبة في طبعه باقية كما هي، بل زادت حدة وضراوة، ولا زال الوحش راقدًا تحت جلد الإنسان المتحضر، بل إن لفظ (الوحش) فيه تجمل في وصف خلفية الإنسان المتحضر اليوم؛ فإن الوحش يهاجم ليأكل أو ليدافع عن نفسه، وفيما عدا ذلك فهو ساكن أو وسنان، أما الإنسان فيدبر لإبادة الألوف أو الملايين وهو راقد في فراش وثير =

ونحن عندما نتخذ من العصور الأولى المفضلة في تاريخنا الإسلامي نموذجًا يمكن تكراره، لأن القواعد التي أسس عليها الصحابة والتابعون الحضارة الإسلامية ما زالت حية ثابتة، وفي استطاعتنا التعلم من تجربتهم التي جمعوا فيها بين الواقعية والمثالية فحققوا نموذجًا حضاريًا رائعًا لم نعرفه في تاريخ الحضارات، وسيظل يشع بنوره للبشرية، رافعًا رايات العدل والمساواة والحرية، التي يفتقدها عالم اليوم المتحضر!

٣- الأصالة لا التقليد[1]:

وهنا نطرح سؤالًا لابد منه، وهو: كيف يراد بنا تقليد الغرب الآن في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا؟ بينما يجأر فلاسفته بالشكوى، باحثين عن خروجهم من مآزق حضارتهم؟

= في غرفة مكيفة الهواء تضم آخر مبتكرات التقدم المادي، فأيهما الوحش؟ هنا يبدو لنا خطر التقدم العلمي الهائل الذي ضغط على المعنويات حتى كاد يزهقها؛ فقيادة التقدم المادي اليوم يقضون نهارهم في المعامل ومراكز التجارب، بينما أسراتهم تتحطم، لأنهم لا يكترثون لما تعمله زوجاتهم أو أبناؤهم أو بناتهم، وهم يرون ذلك حرية وتقدمًا، وهؤلاء الباحثون والعلماء أنفسهم في كثير من الأحيان بشر دون معنويات أصلًا إلا فيما يتصل بمواعيد عملهم، فإن إنسان اليوم مخلوق ضعيف العقل في يده قنبلة يمكن أن يحكم بها نفسه وغيره، وهذا هو وضع الإنسان القائد للحضارة والسياسة اليوم. وقد عبَّر عن هذه الحقيقة ف . فيل في كتابه المسمى «التقدم نحو البربرية!» (ص٣٥٩، ٣٦٠).

(١) ويلفت نظرنا ظاهرة انتصار الأصالة في تحول الباحثين عن الحقيقة بإخلاص وتجرد -كالدكتور مصطفى محمود، والأستاذ محمد جلال كشك- وإنهما ليعبران عن ظاهرة ذات مغزى؛ إذ ينتميان إلى الجيل الذي بهرته الكلمات البرَّاقة في خلايا الشيوعية السرية عن التقدم المنتظر وتحقيق العدالة الاجتماعية على أوسع نطاق، ولكن عندما تحولت الكلمات البرَّاقة إلى العنف طارت خفافيش الأفكار التي لا تعيش إلا في الأوهام، وانقشعت سحب عن حقائق مذهلة أصابتنا بكوارث نعرفها جميعًا.

ربما نجد العذر للبعض عند المرور بفترات المخاض لمن يحس بالأمل أن يبحث عن حلول جاهزة مستوردة بأي ثمن، ولكن بعد طول المعاناة، وبعد التأكد مع تكرار التجارب أن الغرب ما زال ينظر إلينا نظرة العداء، وها هي الحروب مع إسرائيل تدعم رأينا في شدة عداء الغرب لنا، وتحذرنا من البحث عن أنفسنا في مرآة أعدائنا.

ولكننا سنجد من يحاول إيجاد العذر لهذه الحضارة والدفاع عنها بالرغم من أزماتها المتعددة، بدعوى أن مشاكلها مشاكل تقدُّم، وأزماتها ناتجة عن تطلعات وطموح في تنفيذ نتائج أفضل؛ وحتى مع افتراض صحة هذا الزعم، فإننا نرفض التقليد باحثين عن الأصالة، ولا تأتي الأصالة بترقية الشخصية، بل الارتباط بالعقيدة التي كانت حَجَر الزاوية في كيان هذه الأمة، وإلا فهل المطلوب منا نبذ نموذج حضاري لمئات السنين والالتفات إلى أمم الغرب نقلدها؟

وفي الإجابة على هذا السؤال نميز أولًا كما قلنا بين تقليد مقومات الشخصية والعقائد والتصورات، وبين النتائج العلمية؛ فلا وطن للعلم، ولا جنسية للاكتشافات والأبحاث الإنسانية في الميادين المختلفة؛ لأنها نتاج جهود البشرية على اختلاف جنسياتها وأوطانها؛ فليس هناك طب أوروبي، أو هندسة أمريكية، أو فلك روسي، أو جيولوجيا يابانية، وقد ساهمنا فيها كلها يومًا بجهود لا تنكر[(١)].

المشكلة هي اختلافنا الأساسي معهم على قواعد جوهرية تتناول عقيدة التوحيد والإيمان بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإفراده بالألوهية والربوبية، وماهية الإنسان، والغرض من خلقه، وبيان مآله في اليوم الآخر، وما هي وسائله لسلوك أحسن السبل الممكنة في الحياة والارتقاء بها؟

ولعلنا نصدم أصحاب دعوى التجديد المتغربين النابذين للسلفية عندما نضع أمامهم الحديث النبوي: «**إن الله ليبعث لهذه الأمة في رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**». ويرى ابن تيمية أن التجديد بعد الدروس؛ فالتجديد ارتقاء وتقدم بالأمة لتسلك طريقها مرة أخرى، كلما بعدت عن الصحيح الأصيل المتوارث.

---

(١) ينظر كتابنا: «مناهج البحث في العلوم الإسلامية»، مكتبة الزهراء بالقاهرة.

وتأتي آفة التقليد عندما ننسى أصالتنا، ولذا ينبغي التنبيه إلى الحكمة النبوية في الحديث الذي رواه البخاري: «**لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي مأخذ القرون** -الأمم- **قبلها شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراع**». فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومن الناس إلا أولئك؟!**». وفي حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لتتبعن سنن من قبلكم، شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لتبعتموهم**». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن غيرهم؟!**». وجحر ضب كناية عن العادات المخربة لسعادات الشعوب والأفراد. وقد اختلف الجواب بحسب المقام؛ فحيث قيل: «فارس والروم» كان هناك قرينة تدل على أن الأمر يتعلق بنظم الحكم والسياسة والاجتماع، وحيث قيل: «اليهود والنصارى» كان هناك قرينة على تعلق الأمر بما هو من قبيل الديانات والعبادات[١].

وقد استقرأ ابن تيمية الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بترك التشبه بالأمم السابقة والمحافظة على أصالة الأمة الإسلامية.

حيث استحض في النهاية أن مخالفتهم في عامة أمورهم أصلح للمسلمين؛ لأن جميع الآيات دالَّة على ذلك، كذلك هناك من الآيات ما يدل على أن مخالفتهم واجبة. وبصرف النظر عن دلالة الوجوب عن غيرها فإن مخالفتهم مشروعة في الجملة[٢].

وسيأتي تعليله وبيانه للحكمة من المخالفة إبقاءً على ذاتية الأمة الإسلامية، ومحافظة على كيانها المتميز عن الأمم السابقة التي انحرفت عن الصراط المستقيم.

---

(١) عبد المتعال الجبري، «المرأة في التصور الإسلامي»، مكتبة وهبة، (ص١٧٦، ١٧٧).

(٢) ابن تيمية، «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، (ص١٧)، بتحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٦٩هـ/ ١٩٥٠م.

أدلة الكتاب والسُّنَّة:

يرى شيخ الإسلام أن دلالة الكتاب على خصوص الأعمال وتفاصيلها إنما تقع بطريق الإجمال والعموم أو الاستلزام، وتأتي السُّنَّة لتفسر الكتاب وتبينه، وتدل عليه وتعبر عنه.

والتزامًا بهذا الأصل يذكر آيات من الكتاب الحكيم، ويتبعها بالأحاديث المفسرة لمعاني ومقاصد الآيات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة:٥١].

وقال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة:٢٢].

وكذلك ما ورد في السنة؛ فقد كان النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كره مشابهة أهل الكتابين في الآصار والأغلال، حيث كان ذلك من صفته صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف:١٥٧].

لهذا فإنه زجر أصحابه عن التبتل، وقال صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا رهبانية في الإسلام**»، وأمر بالحذر، ونهى عن المواصلة، وقال فيما يعيب به أهل الكتابين ويحذرنا موافقتهم: «تلك بقاياهم في الصوامع»[1].

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، (ص٤٧).

وإننا نعتقد أن كتاب شيخ الإسلام (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم) يحمل بين طياته أبلغ الدلالات وأقواها في تحذير الأمة الإسلامية من تقليد غيرها، ذلك لأن الأمة الإسلامية تميزت بخصائص تميزها عن غيرها من الأمم، وتجعل من التزامها بعقائدها وشريعتها أمة متقدمة بالمعنى الحضاري الصحيح، حيث تتميز الحضارات -كما قلنا- بالعقائد والقيم والسلوك في المقام الأول، ثم تأتي المرتبة التالية المنتجات المادية.

وقد نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن التشبه بالأمم الأخرى في الحديث المشار إليه آنفًا، وعندما عاصر شيخ الإسلام ابن تيمية ألوانًا من تقليد فارس والروم، أخذ يحذر منه وينبه إليه: «فقد دخل منه في هذه الأمة من الآثار الرومية قولًا وعملًا، والآثار الفارسية قولًا وعملًا ما لا خفاء فيه على مؤمن عليم بدين الإسلام، وبما حدث فيه»[(١)].

ولا ندري لو عاش معنا الشيخ عصرنا الحاضر... ماذا عساه أن يقول!!

وعلى أية حال، فإنه يوضح المعالم الخاصة بهذه الأمة استنادًا إلى فهمه لآيات القرآن وأحاديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحلل الآثار الناجمة عن التشبه بالأمم الأخرى.

وكطريقة ابن تيمية في عرض أفكاره يبدأ بشرح المقصود بالصراط المستقيم بأنه يتضمن أمورًا باطنة وأخرى ظاهرة. والباطنة: مقرها القلب، كالاعتقادات والإرادات وغيرها. والظاهرة: كالأقوال والأفعال.

وهذه الأعمال الظاهرة قد تكون أيضًا عادات: في الطعام واللباس والزواج والمسكن والاجتماع والافتراق والسفر والإقامة والركوب وما شابهها.

والقاعدة الكلية التي يبني عليها الحكم هي أن الأمر بموافقة قوم أو بمخالفتهم قد يكون؛ لأن نفس قصد موافقتهم أو نفس موافقتهم مصلحة، وكذلك نفس قصد مخالفتهم أو نفس مخالفتهم مصلحة.

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، (ص١٠).

وبتطبيق هذه القاعدة طردًا وعكسًا فنحن ننتفع بنفس متابعتنا لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والسابقين من السلف الصالح من المهاجرين والأنصار في أعمال لولا أنهم فعلوها لربما قد كان لا يكون لنا مصلحة؛ لما يورث ذلك من محبتهم محبتهم وائتلاف قلوبنا بقلوبهم ويدعونا أيضًا إلى موافقتهم في أمور أخرى[١].

وهكذا ينبهنا ابن تيمية إلى أصل جوهري من أصول استمرار الحضارة الإسلامية وفقًا لارتباطهم بجذورها التي ازدهرت في العصور الأولى بفضل ما حققه الأوائل من أعمال، بحيث إننا نضمن عند متابعتنا لها من استمرار هذه الحضارة؛ فإن أية حضارة ما هي إلا ثمرة العقائد والأعمال، وقد عبروا بها عن القمة، وبلغوا فيها الذروة.

ويشرح ابن تيمية منافع الأعمال الصالحة في ذاتها، ويعلل الحكمة من المتابعة أو المخالفة وأثرها على النفوس البشرية.

ويستدل على ذلك بما هو مُجَرَّب ومحسوس؛ فإن اللابس لثياب أهل العلم -مثلًا- يجد في نفسه نوع انضمام إليهم، واللابس لثياب الجند القاتلة مثلًا يجد في نفسه نوع تخلق بأخلاقهم، ويصير طبعه مقتضيًا لذلك، «لا أن يمنعه من ذلك مانع»[٢].

وعلى العكس من ذلك؛ فإن المخالفة في الهدي الظاهر توجب مباينة ومفارقة توجب الانقطاع عن موجبات الغضب، وأسباب الضلال والانعطاف إلى أهل الهدى والرضوان، وتحقق ما قطع الله من الموالاة بين جنده المفلحين وأعدائه الخاسرين. وكلما كان القلب أتم حياة وأعرف بالإسلام. -ويستطرد ابن تيمية-: «لست أعني مجرد التوسم به ظاهرًا، أو باطنًا بمجرد الاعتقادات التقليدية من حيث الجملة، كان إحساسه

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، (ص١٣).
(٢) المصدر نفسه، (ص١١).

بمفارقة اليهود والنصارى باطنًا أو ظاهرًا لأتم، وبعده عن أخلاقهم الموجودة في بعض المسلمين أشد»[(١)].

ويعمِّق شيخ الإسلام في تعليله لسبب المنع؛ حيث يرجعه إلى التأثير المتبادل بين الروح والجسم، أو الانفعالات النفسية وأعمال الجوارح الظاهرة؛ إذ إن الأمور الباطنة من اعتقادات وإرادات كالأقوال والأفعال من عبادات وعادات وغيرها، هذه الأمور الباطنة والظاهرة لابد بينهما من ارتباط ومناسبة، «فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال يوجب للقلب شعورًا وأحوالًا»[(٢)].

وتفسير ذلك أن طاعة الله تعالى وعبادته والخضوع لأوامره والانتهاء عن نواهيه تورث انشراحًا في الصدر وسعادة في النفس ونورًا في القلب، وبالضد من ذلك؛ فإن المعاصي تورث كآبة النفس وظلمة القلب، وتسبب الغم والحزن والضيق.

وأصل ذلك في وصف الفريق الأول قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة:٧١]. والفريق الثاني قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [التوبة:٦٨]. «إشارة إلى ما هو لازم لهم في الدنيا والآخرة من الآلام النفسية: غمًّا وحزنًا، وقسوة وظلمة قلب وجهلًا، فإن للكفر والمعاصي من الآلام العاجلة الدائمة ما الله به عليم، ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يطيِّبون عيشهم إلا بما يزيل عقولهم ويلهي قلوبهم من تناول مسكر، أو رؤية مُلْهٍ -أي: ملاهي-، أو سماع مطرب، أو نحو ذلك».

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، (ص١٢).

وابن تيمية هنا في تحليله بين الملابس والنفس البشرية أسبق من كارليل صاحب كتاب: «فلسفة الملابس». يقول كارليل: «من ذا الذي رأى منكم أحدًا من اللوردات يحييه الناس بتحيته وهو في أسمال رثة وأطمار بالية؟!... إلخ»، ص(١٩٦)، ترجمة: طه السباعي، مطبعة البشلاوي بمصر، سنة ١٩٢٧م.

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، (ص١١).

فصل

الوحي الإلهي هو المنقذ لبني آدم وليس الفكر الفلسفي:

كان نقد ابن تيمية يشكل أحد الأسلحة لحماية ذاتية الأمة في مواجهة الثقافة اليونانية، وصدها، ومنع تسربها للمسلمين، وكان هذا دأب علماء السُّنَّة، وينبغي أن يستمر كدور أساسي لعلمائنا في معركة الصراع بين الغرب الأوروبي والشرق الإسلامي، استمساكًا بمنبع الإسلام: الكتاب والسُّنَّة.

والمنهج لا يحتاج إلى إعادة شرح؛ فإن استدلال الشيخ بالكتاب والسُّنَّة من الوضوح بحيث يكاد يختفي هو نفسه وراء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي يستنبطها. كل ما فعله هو أنه يذكرنا بها إذ قدمها لنا في شكل نسق متكامل، يتناول الإنسان: نفسه وإرادته ومصيره وما يسعده وما يشقيه، ولا يكتفي بالتفسير؛ بل يحرك الإنسان بتذكيره بالوعد والوعيد، ويحذره من المهالك على طريق الحياة، مبينًا صلة الاعتقادات بالأعمال، ودور العبادات في إصلاح النفس وكيف تحقق السعادة والطمأنينة النفسية، وإصلاح المجتمع بتطبيق شريعة الله. وتظهر الصبغة العملية الواضحة في الإسلام: أنه دين (حركي ارتقائي) يصعد بالإنسان قدمًا ليصل إلى مرتبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

نقد ابن تيمية للفكر الفلسفي:

تنبَّه شيخ الإسلام إلى عجز الفكر الفلسفي عن تحقيق السعادة للإنسان في حياته الراهنة فضلًا عن الحياة الآخرة، وأظهر ما يتضمنه الكتاب والسُّنَّة من نصوص عن الإنسان وماهيته وسعيه الحثيث إلى تحقيق المنافع والملذات، واجتنابه ما يجلب الأضرار والآلام.

وكان ابن تيمية معارضًا لآراء الفلاسفة العملية الأخلاقية أيضًا. وخلاصة المآخذ التي وجهها إلى الفلاسفة اليونان -ومن تبعهم من المسلمين- أن ما ذكروه من العمل لا يخضع لقواعد ملزمة، وإنما يتعلق بالندب؛ أي: اختيارًا لا إلزامًا، كما أنهم لم يثبتوا خاصية للنفس، وهي محبة الله تعالى وتوحيده، بل لم يعرفوا كمال تلك النفس، أضف إلى ذلك أن علمهم بالله تعالى قليل مشتمل على كثير من الباطل، بينما يتحقق كمال النفس في العلم والإرادة معًا؛ العلم بالله تعالى وإرادة مرضاته وابتغاء وجهه عَزَّوَجَلَّ.

إنه بهذا التحليل لا يوجه نقده للفكر الفلسفي اليوناني فحسب؛ بل للفكر الفلسفي عامة، لأن ظواهر القصور في هذا الفكر ما زالت قائمة ويسجلها الباحثون والكُتَّاب، ويلحظها الفلاسفة الغربيون أنفسهم.

يصف كولن ولسن النقطة التي وصل إليها تفكير القرن العشرين بقوله: «من المتوقع أن تصف الأجيال الآتية النصف الأول من هذا القرن بأنه: «**عصر اللامعنى**»، ففقدان المعنى والهدف يجثم على أدبنا وفننا وفلسفتنا، هذا الشعور العام بأن التأكيدات التي يمنحها الدين قد ضاعت ولا يمكننا استبدالها؛ فتحليل العلم للمشكلات العلمية يزيد في اتساع هوة الفراغ المؤلم، ومن خلال هذا تبدو الثقافة الغربية تعاني الانهيار والانتكاس لما لا يقل عن مائة سنة، إذ إن الأمر ليس إلا مسألة تفكير في معرفة المدة التي تستمر فيها قبل أن يلتهمها الإفلاس الماحق»[1].

ولنعد لنقد شيخ الإسلام التفصيلي لفلاسفة اليونان ومن تبعهم:

إن القصور يرجع إلى ثلاثة أسباب:

الأول- أن الحكمة النظرية -أو الفلسفة عندهم- وهي أصل العمل لا تتضمن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ وهو العلم الذي تهتدي به النفوس.

---

(١) كولن ولسن، «ما بعد اللامنتمي»، (ص١٥)، فلسفة المستقبل، ترجمة: يوسف شرور وعمر بمق، دار الآداب، بيروت، سنة ١٩٨١م.

الثاني- أن الحكمة العملية لا تتضمن الأعمال التي تسعد بها النفوس الإنسانية وتنجو من عذاب الله تعالى.

الثالث- أن غاية الحد الأوسط -عند أرسطو ومن سار على دربه- هو تعديل الشهوة والغضب بالعفة والحلم؛ أي إن مقصودهم ترك الإسراف فيهما، أضف إلى ذلك أن الفلاسفة لم يضعوا حدًّا فاصلًا قاطعًا بين ما تحصل به النجاة والسعادة وما يسبب الشقاء والعذاب، بينما فعل ذلك الرسل والأنبياء، حيث بينوه وأوضحوه، وقد قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

ويظهر من هذه الآية التحريم المطلق بلا إباحة لأحد من الخلق بأي حال من الأحوال، بخلاف الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك، فإنه يحرم في حالٍ ويباح في حال.

ولكي يتبين التفسير الصحيح لهذه الآية: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]. يقارن ابن تيمية بينها وبين آيات أخرى تتضمن لام التعليل، كقوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ [الحج:٣٧]. وقوله: ﴿ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ﴾ [الحشر:٧]. وقوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٦٤]. فهو سبحانه لم يرسله إلا ليُطاع، ثم قد يُطاع وقد يُعْصَى. وكذلك ما خلقهم إلا للعبادة، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون، فلم يذكر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه خلقهم ليجعلهم عابدين، ولكن ذكر أنه فعل:

الأول- أي: الخلق؛ ليفعلوا هم.

الثاني- أي: العبادة؛ فيكونون هم الفاعلين لها، فيحصل بفعلهم سعادتهم وما يحبه ويرضاه لهم؛ إذ إن كل ما خلقه وأمر به غايته محبوبة لله ولعباده، وفيه حكمة له، وفيه رحمة لعباده[١].

الدين مصدر الإلزام الخُلُقي والأحكام الشرعية:

والتعليل للتحريم المطلق يرجع في رأي ابن تيمية إلى أن الفواحش متعلقة بالشهوة، والبغي بغير الحق يتصل بالغضب، والشرك بالله فساد في أصل العدل؛ فالشرك ظلم عظيم، وفساد العلم يرتبط بالقول على الله بغير علم، وهكذا حرم سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذه الأربعة، وهي: فساد الشهوة والغضب وفساد العدل والعلم. ويظهر لنا مما تقدم أنه يهتم باستخراج القواعد الأخلاقية التي تنظم سلوك الإنسان، وأنه يُخضِع هذا السلوك لنظام محدد أُستُخلِص من القرآن الكريم.

إذا اخترنا تعريف «سدجويك» للأخلاق بأنها: «مجموعة قوانين شرعها للناس إله»[٢]، فإننا نجد في هذا المفهوم أكثر دقة وتفصيلًا عند الشيخ السلفي؛ إذ أوضح أن رسالة الرسل والأنبياء جميعًا جاءت بأمر عبادة الله سبحانه وحده في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦]. وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقوله لما ذكر قصص الأنبياء: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٩٢]. وقوله: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦].

نفهم من هذه الآيات وغيرها أن الغاية التي تتم بها سعادة البشر ونجاتهم هي عبادة الله وحده، حيث أرسل الرسل والكتب لهذه الغاية، فلا تصلح النفوس وتزكو

---

(١) «مجموع الفتاوى»، جـ(٨)، ص(٥٥-٥٦).

(٢) سد جويك، «المجمل في تاريخ علم الأخلاق»، (ص٧٨).

إلا بها. ويفسر ابن تيمية قوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فُصلت:٦-٧]. بأنهم لا يؤتون ما تزكو به نفوسهم من التوحيد والإيمان، ومن ثم فإنهم يستحقون العذاب لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وفي هذا الأمر تتفق رسالة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع رسالتي موسى وعيسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ؛ حيث وردت أول الوصايا العشر التي أنزلها الله على موسى، حيث قال له: «أنا الله لا إلا إلا أنا إلهك الذي أخرجتك من مصر». وقد شهد المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن هذه هي أعظم وصية في الناموس، وهكذا اتفقت كثير من الكتب الإلهية على عبادة الله وحده؛ فلا نجاة للنفس الإنسانية ولا سعادة ولا كمال «إلا بأن يكون الله معبودها ومحبوبها الذي لا أحب إليها منه»[1].

وقد أخبر الله تعالى في غير موضع من القرآن عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران:١٦٤]. وتفسير هذه الآيات أنه بتلاوتها يحصل العلم؛ لأن الآيات هي الدلالات والعلامات؛ أي أنها تدلهم على المطلوب من تصديق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما أخبر به. وأما التزكية فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده وطاعته؛ فالتزكية تكون بطاعة أمره[2].

مفهوم الدين إذن له شقان. أحدهما: هو تزكية النفس بعبادة الله وحده، والثاني: الطاعة فيما أمر به الله سبحانه؛ فجماع الدين أمر ونهي[3]، وقد وردت الآيات التي تصف محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بأنه: ﴿وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ

(١) ابن تيمية، «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح»، جـ(٤)، ص(١٠٦).

(٢) ابن تيمية، «النبوات»، (ص١٧٢).

(٣) «الحسبة»، (ص١٠).

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]. ومنها يظهر كمال رسالته؛ فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف ونهى عن كل منكر وأحل كل طيب وحرم كل خبيث[١]. وجاءت الحدود والعقوبات داعية إلى فعل الواجبات وترك المحرمات، ولم تفسد أمور كثيرة من الناس إلا بسبب تعطيل الحدود الشرعية[٢].

وساق ابن تيمية الحديثين الدالّين على رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ أحدهما: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»، والثاني: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى دارًا فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة؛ فكان الناس يطوفون بها ويعجبون من حسنها ويقولون: لولا موضع اللبنة! فأنا تلك اللبنة**».

أما الرسل قبله، فقد كان الله تعالى يحرم على أممهم بعض الطيبات كما قال: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٦٠]. وكما قال: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلّٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ [آل عمران:٩٣].

فربما لم يحرم عليهم جميع الخبائث. وقد أكمل الله تعالى الدين للأمة الإسلامة بقوله: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة:٣].

وجعل ميزة هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لذا لم يتم الأمر بجميع المعروف والنهي عن كل منكر إلا بواسطة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي تمم الله به مكارم الأخلاق المتدرجة في المعروف[٣].

---

(١) المصدر نفسه، (ص٦٣).

(٢) «السياسة الشرعية»، (ص٨٥-٨٦).

(٣) ابن تيمية، «الحسبة»، (ص٦٤).

ويهتم ابن تيمية بتفاصيل العقوبات الشرعية؛ إذ لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا بها، فيوضح الحدود التي تقيمها ولاة الأمور؛ لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

ويتضح من كل ما تقدم أن مجموعة الأحكام الشرعية المتدرجة تحت مبدأ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) لها صفة الإلزام، ولهذا فقد شُرعت العقوبات داعية إلى فعل الواجبات، وترك المحرمات[١].

ولئن كان الثواب والعقاب من جنس العمل في قدر الله، فإن من عدله سبحانه الذي تقوم به السماء والأرض أن يكون ذلك في شرعه أيضًا، ولهذا شرع قطع يد المحارب ورجله، وشرع القصاص في الدماء والأموال[٢]؛ بل إنه ينبغي حسم مادة الشر والمعصية وسد ذريعته، مثال ذلك: قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يخلون الرجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما**»، ونهى عن الخلوة بالأجنبية والسفر بها؛ لأنه ذريعة إلى الشر، وقد تقيد الخلفاء الراشدون بهذه القواعد وطبقوها[٣].

ونرى ابن تيمية يتخذ موقفًا سليمًا في رده الإلزام في القوانين الأخلاقية إلى إرادة الله وأحكامه المطلقة، ودور العقوبات الشرعية في إصلاح المجتمعات.



(١) «السياسة الشرعية»، (ص١٦٢).
(٢) «الحسبة»، (ص٦٢).
(٣) «السياسة الشرعية»، (ص١٦٣) وما بعدها.

فصل

نموذج من صفوة عقيدة أهل السنة والجماعة:

وذلك أنهم يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر: خيره وشره؛ فيشهدون أن الله هو الرب الإله المعبود، المتفرد بكل كمال، فيعبدونه وحده، مخلصين له الدين.

فيقولون: إن الله هو الخالق البارئ المصور الرزاق المعطي المانع لجميع الأمور، وأنه المألوه المعبود الموحَّد المقصود، وأنه الأول الذي ليس قبله شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء.

وأنه العلي الأعلى بكل معنًى واعتبار؛ علو الذات وعلو القدر، وعلو القهر.

وأنه على العرش استوى، استواءً يليق بعظمته وجلاله، ومع علوه المطلق وفوقيته؛ فعلمه محيط بالظواهر والبواطن والعالم العلوي والسفلي، وهو مع العباد بعلمه، يعلم جميع أحوالهم، وهو القريب المجيب.

وأنه الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، والكل إليه مفتقرون في إيجادهم وإيجاد ما يحتاجون إليه في جميع الأوقات، ولا غنى لأحد عنه طرفة عين، وهو الرءوف الرحيم، الذي ما بالعباد من نعمة دينية ولا دنيوية ولا دفع نقمة إلا من الله، فهو الجالب للنعم، الدافع للنقم.

ومن رحمته أنه يَنْزِل كل ليلة إلى السماء الدنيا يستعرض حاجات العباد حيث يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: «**لا أسأل عن عبادي غيري، من ذا الذي يدعوني فاستجيب له؟ من ذا الذي يسألني فأعطيه؟ من ذا الذي يستغفر لي فأغفر له؟**» حتى يطلع الفجر.

فهو ينزل كما يشاء، ويفعل كما يريد، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ويعتقدون أنه الحكيم، الذي له الحكمة التامة في شرعه وقدره؛ فما خلق شيئًا عبثًا، ولا شرع الشرائع إلا للمصالح والحكم.

وأنه التواب العفو الغفور، يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات، ويغفر الذنوب العظيمة للتائبين والمستغفرين والمنيبين.

وهو الشكور الذي يشكر القليل من العمل، ويزيد الشاكرين من فضله.

ويصفونه بما وصف به نفسه، ووصفه به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصفات الذاتية: كالحياة الكاملة، والسمع والبصر، وكمال القدرة والعظمة والكبرياء، والمجد والجلال والجمال، والحمد المطلق.

ومن صفات الأفعال المتعلقة بمشئيته وقدرته: كالرحمة والرضا، والسخط والكلام، وأنه يتكلم بما يشاء وكلماته لا تنفد ولا تبيد.

وأن القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بَدَأَ، وإليه يعود.

وأنه لم يزل ولا يزال موصوفًا بأنه يفعل ما يريد، ويتكلم بما شاء، ويحكم على عباده بأحكامه القدرية، وأحكامه الجزائية؛ فهو الحاكم المالك، ومن سواه مملوك محكوم عليه، فلا خروج للعباد عن ملكه ولا عن حكمه.

ويؤمنون بما جاء به الكتاب وتواترت به السنة: أن المؤمنين يرون ربهم تعالى عيانًا جهرة، وأن نعيم رؤيته والفوز برضوانه أكبر النعيم واللذة.

وأن من مات على غير الإيمان والتوحيد فهو مخلد في نار جهنم أبدًا، وأن أرباب الكبائر إذا ماتوا على غير توبة ولا حصل لهم مكفر لذنوبهم ولا شفاعة وإن دخلوا النار لا يخلدون فيها، ولا يبقى أحد في النار في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان إلا خرج منها.

وأن الإيمان يشمل عقائد القلوب وأعمالها، وأعمال الجوارح وأقوال اللسان؛ فمن قام بها على الوجه الأكمل فهو المؤمن حقًّا، الذي استحق الثواب وسلم من العقاب، ومن انتقص منها شيئًا نقص من إيمانه بقدر ذلك، ولذلك كان الإيمان يزيد بالطاعة وفعل الخير، وينقص بالمعصية والشر.

ومن أصولهم: السعي والجد فيما ينفع من أمور الدين والدنيا مع الاستعانة بالله.

فهم حريصون على ما ينفعهم ويستعينون بالله، وكذلك يحققون الإخلاص لله في جميع حركاتهم، ويتبعون رسول الله ﷺ في الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول ﷺ والنصيحة للمؤمنين واتباع طريقتهم.

ويشهدون أن محمدًا ﷺ عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو خاتم النبيين، أرسله إلى الإنس والجن بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، أرسله بصلاح الدين وصلاح الدنيا، وليقوم الخلق بعبادة الله ويستعينوا برزقه على ذلك.

ويعلمون أنه أعلم الخلق وأصدقهم وأنصحهم وأعظمهم بيانًا ﷺ؛ فيعظمونه ويحبونه، ويقدمون محبته على محبة الخلق كلهم، ويتبعونه في أصول دينهم وفروعه.

ويقدمون قوله وهديه ﷺ على قول كل أحد وهديه.

ويعتقدون أن الله جمع له من الفضائل والخصائص والكمالات ما لم يجمعه لأحد؛ فهو أعلى الخلق مقامًا، وأعظمهم جاهًا، وأكملهم في كل فضيلة، لم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهم منه ﷺ.

وكذلك يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وكل رسول أرسله الله، لا يفرقون بين أحد من رسله.

ويؤمنون بالقدر كله، وأن جميع أعمال العباد -خيرها وشرها- قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، وتعلقت بها حكمته، حيث خلق للعباد قدرة وإرادة تقع بها أقوالهم وأفعالهم بحسب مشيئتهم، لم يجبرهم على شيء منها؛ بل جعلهم مختارين لها، وخص المؤمنين بأن حبب إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان بعدله وحكمته.

ومن أصول أهل السُّنَّة أنهم يدينون بالنصيحة لله، ولكتابه، ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأئمة المسلمين وعامتهم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجيران والمماليك والمعاملين، ومن له حق، وبالإحسان إلى الخلق أجمعين.

ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسنها، وينهون عن مساوئ الأخلاق وأرذلها.

ويعتقدون أن أكمل المؤمنين إيمانًا ويقينًا أحسنهم أعمالًا وأخلاقًا، وأصدقهم أقوالًا، وأهداهم إلى كل خير وفضيلة، وأبعدهم من كل رذيلة.

ويأمرون بالقيام بشرائع الدين على ما جاء عن نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها وفي صفاتها ومكملاتها، والتحذير عن مفسداتها ومنقصاتها.

ويرون الجهاد في سبيل الله ماضيًا مع البر والفاجر، وأنه ذروة سنام الدين؛ جهاد العلم والحجة، وجهاد السلاح، وأنه فرض على كل مسلم أن يدافع عن الدين بكل ممكن ومستطاع.

ومن أصولهم: الحث على جمع كلمة المسلمين، والسعي في تقريب قلوبهم وتأليفها، والتحذير من التفرق والتعادي والتباغض، والعمل بكل وسيلة توصل إلى هذا.

ومن أصولهم: النهي عن أذية الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم، والأمر بالعدل والإنصاف في جميع المعاملات، والندب إلى الإحسان والفضل فيها.

ويؤمنون بأن أفضل الأمم أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأفضلهم أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ خصوصًا الخلفاء الراشدون، والعشرة المشهود لهم بالجنة، وأهل بدر وبيعة الرضوان، والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار؛ فيحبون الصحابة ويدينون لله بذلك.

وينشرون محاسنهم ويسكتون عما قيل عن مساوئهم.

ويدينون لله باحترام العلماء الهداة وأئمة العدل، ومن لهم المقامات العالية في الدين والفضل المتنوع على المسلمين، ويسألون الله أن يعيذهم من الشك والشرك والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وأن يثبتهم على دين نبيهم إلى الممات.

هذه الأصول الكلية بها يؤمنون ولها يعتقدون وإليها يدعون(١).

التوحيد الذي دعت إليه الرسل:

اعلم -رحمك الله- أن التوحيد هو إفراد الله سبحانه بالعبادة، وهو دين الرسل الذي أرسلهم الله به إلى عباده...

فأولهم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نوح أرسله الله إلى قومه لما غلوا في الصالحين: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر.

وآخر الرسل محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الذي كسر صور هؤلاء الصالحين، أرسله الله إلى أناس يتعبدون ويحجون ويتصدقون ويذكرون الله كثيرًا، ولكنهم يجعلون بعض

---

(١) «القول السديد في مقاصد التوحيد»، لابن سعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ، (ص٦-١٠).

المخلوقات وسائط بينهم وبين الله؛ يقولون: نريد منهم التقرب إلى الله ونريد شفاعتهم عنده، مثل: الملائكة وعيسى ومريم وأناس غيرهم من الصالحين.

فبعث الله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجدد لهم دين أبيهم إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله لا يصلح منه شيء لغير الله، لا لملك مقرَّب ولا لنبي مرسل؛ فضلًا عن غيرهما، وإلا فهؤلاء المشركون يشهدون أن الله هو الخالق وحده لا شريك له، وأنه لا يرزق إلا هو، ولا يحيي ولا يميت إلا هو، ولا يدبر الأمر إلا هو، وأن جميع السماوات ومن فيهن، والأرضين ومن فيهن؛ كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره[1].

التوحيد الذي دعت إليه الرسل:

التوحيد الذي دعت إليه رسل الله ونزلت به كتبه نوعان: توحيد في الإثبات والمعرفة، وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذاته -تعالى- وصفاته وأفعاله وأسمائه، ليس كمثله شيء في ذلك كله، كما أخبر به عن نفسه، وكما أخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع كل الإفصاح في أول سورة (الحديد) و(طه) وآخر (الحشر) فأول ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ [السجدة:١-٢]، وأول (آل عمران) وسورة (الإخلاص) بكمالها، وغير ذلك[2].

والثاني: وهو توحيد الطلب والقصد، مثل ما تضمنته سورة (الكافرون): ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١]. و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا

---

(١) مجموعة التوحيد، ص(٥٤). المصدر: كتاب «تذكير المسلمين بتوحيد رب العالمين»، جمع وتحقيق: عبد الله ابن جار الله بن إبراهيم آل جار الله.

(٢) وهذا النوع يشمل توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات.

وَبَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران:٦٤]. وأول سورة «تنزيل الكتاب» وآخرها، وأول سورة (يونس) وأوسطها وآخرها، وأول سورة (الأعراف) وآخرها، وجملة سورة (الأنعام).

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعي التوحيد؛ بل كل سورة في القرآن، فإن القرآن إما خَبَر عن الله وأسمائه وصفاته؛ وهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يُعبد من دونه؛ فهو التوحيد ومكملاته. وإما خَبَر عن إكرامه لأهل توحيده، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خَبَر عن أهل الشرك، وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحل بهم في العقبى من العذاب[1]، فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد[2].

الذرائع إلى الشرك:

لما كان الإسلام دين التوحيد الخالص -كما بيَّنا- فينبغي على المسلم المحافظة على هذه العقيدة بحيث لا تشوبها شائبة أيًّا كانت.

وهناك من الأمور التي تحوم حول الشرك -وتعد من الكبائر- نحذِّر منها، ونفترض في البداية -بسبب عوامل التنشئة والتقليد الأعمى- والأميّة الدينية أن من يفعلها يجهل أنها قد تؤدي إلى الشرك، أما إذا علم أنها كذلك وأصرّ عليها؛ فإنها توقعه في الشرك بلا جدال.

يقول الإمام الذهبي في كتاب (الكبائر): «واعلم أن كثيرًا من هذه الكبائر؛ بل عامتها -إلا القليل- يجهل خلق من الأمة تحريمه، وما بلغه الزَّجر فيه ولا الوعيد، فهذا

---

(١) عبَّر بقوله: «وما فعل» بصيغة الماضي؛ لأن ما توعد الله به أهل الشرك متحقق ثابت بموتهم مشركين، فكأنه وقع فعلًا، وذلك التعبير -بصغة الماضي الواقع عما سيكون يوم القيامة- كثير في القرآن.

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية»، تحقيق: الشيخ أحمد شاكر، (ص٢٩).

الضرب فيه تفصيل ينبغي للعالِم أن لا يستعجل على الجاهل؛ بل يرفق به ويعلمه مما علَّمه الله، ولا سيما إذا كان قريب العهد بجاهليته...»[١].

ومنها:

١- التوسل بالأضرحة والطواف حولها؛ إذ إن الاعتقاد بأن صاحب الضريح ينفع ويضر هو شرك حقيقي، على صاحبه أن يتوب منه، كذلك الطواف؛ فلا يصح الطواف إلا حول الكعبة.

٢- الذبح والنذر لغيرَ الله عَزَّوَجَلَّ.

٣- اتخاذ التمائم والأحجبة ظنًّا أنها تؤدي إلى الحفظ والصيانة من أعين الناس.

وقد حصرها -وغيرَها- الإمام ابن رجب في الأفعال المنافية لتحقيق معنى «لا إله إلا الله»؛ لأن تحقيقها «يقتضي أن لا إله غير الله، والإله هو الذي يُطاع؛ فلا يُعصى هيبةً له وإجلالًا، ومحبةً وخوفًا ورجاءً، وتوكلًا عليه وسؤالًا منه ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله لغير الله عَزَّوَجَلَّ؛ فمن أشرك مخلوقًا في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدْحًا في إخلاصه في قوله: «لا إله إلا الله»، ونقصًا في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك، ولهذا ورد إطلاق الكفر والشرك على كثير من المعاصي التي منشؤها من طاعة غير الله أو خوفه أو رجائه، أو التوكل عليه، أو العمل لأجله، كما ورد إطلاق الشرك على الرياء وعلى الحلف بغير الله، وعلى التوكل على غير الله والاعتماد عليه، وعلى من سوَّى بين الله وبين المخلوق في المشيئة، مثل أن يقول: ما شاء الله وشاء فلان. وكذا قوله: ما لي إلا الله وأنت. وكذلك ما يقدح في التوحيد وتفرد الله بالنَّفع والضرّ؛ كالطيرة والرقى المكروهة، وإتيان الكهان

(١) «الكبائر»، تحقيق: د. أسامة محمد عبد العظيم حمزة، (ص٥)، دار الفتح، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

وتصديقهم بما يقولون، وكذلك اتباع هوى النفس فيما نهى الله عنه قادح في تمام التوحيد وكماله، ولهذا أطلق الشرع على كثير من الذنوب التي منشؤها من هوى النفس أنها كفر وشرك؛ كقتال المسلم، ومن أتى حائضًا أو امرأة في دبرها، ومن شرب الخمر في المرة الرابعة، وإن كان ذلك لا يخرجه من الملة بالكلية، ولهذا قال السلف: **كفر دون كفر، وشرك دون شرك**»[1].

وفي العصر الحديث على إثر الاستعمار الغربي ظهر بناء التماثيل والاحتفال بها أو ما يُسمى بـ(النصب التذكارية)، وهي كلها أصنام، والاحتفال بها نوع من الوثنية التي نهى الإسلام عنها.

وربما يتحذلق المتغربون فيعتبرون ذلك من قبيل التمدن والتحضر لا العبادة؛ لأن الإنسانية ارتقت، ومضت عصور الجاهلية الأولى التي كان العرب وغيرهم يعبدون الأصنام إبَّانها.

ولكن الحقيقة أن وضع التماثيل للموتى يُشبه تمامًا ما كان يفعله أهل الجاهلية إذا بحثنا في الأثر الواحد لكلا الفعلين؛ فإن العبرة بالأثر النفسي الذي يتركه كل منهما، فإن عبادة الأصنام «لا تعني بالضرورة فقط أداء عبادة شعائرية أمام شيء مادي؛ فصور الزعماء والشخصيات المشهورة عندما تعلق على الجدران بطريقة عامة وتوزع في كل مكان تتسبب بالتأكيد في خلق عبودية فكرية وإجلال إلهي لهؤلاء الأشخاص، وخلق عظمة ثابتة مؤثرة -بدلًا من عظمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- في عقولهم ونفوسهم، وهذا بالتأكيد شكل من أشكال عبادة الأصنام. فعندما استولت روسيا على بولندا جلبت آلاف الألوف من صور (ستالين) لتعلق في كل بلدة وقرية هناك... واعتاد جنود النازي وضع صور

---

(١) «تحقيق كلمة الإخلاص»، للحافظ ابن رجب، (ص١٦-١٨)، تحقيق وتعليق: د. أسامة محمد عبد العظيم، دار الفتح، ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

هتلر على صدورهم، وكانوا عندما يُصابون في المعركة ويلفظون أنفاسهم الأخيرة في المستشفيات يُشَاهَدُون وهم يُقبِّلون صور هتلر ثم يضعونها على أعينهم»[١].

وكل تلك المظاهر الشركية حرمها الإسلام تحريمًا قاطعًا للمحافظة على عقيدة التوحيد النقية[٢]، وظلت الأمة الإسلام بعد نبيها محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مسئولة عن المحافظة عليها بالنواجذ جيلًا بعد جيل، حتى قيام الساعة؛ لأنها الشاهدة على الأمم، وقد حملها الله تعالى تلك المسئولية بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴾ [البقرة:١٤٣].

تمّ الكتاب بفضل الله تعالى وكرمه، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وعلى رسوله محمد وآله وصحبه أكمل الصلوات وأتم التسليمات.

❋❋❋

(١) «الرسائل المتبادلة بين أبو الأعلى المودودي ومريم جميلة عن الدعوة وهموم المسلمين» (ص١١٠، ١١١)، ترجمة: طارق خاطر، ط المختار الإسلامي، سنة ١٩٩٢م.

(٢) قال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

ملحــق

بعض المصادر للعقائد الإسلامية

* دفاع عن السُّنَّة، ويليه: والرد على من ينكر حجية السُّنَّة.

د/ محمد أبو شهبة - د/ عبد الغني عبد الخالق.

* معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول.

للشيخ/ حافظ بن أحمد الحكمي، ١٣٤٢-١٣٧٧هـ.

* شرح العقيدة الطحاوية: (أ) تحقيق: الدكتور/ التركي والأرنؤوطي.

(ب) تحقيق: الشيخ/ الألباني.

* شرح اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة، اللالكائي، ت: ٤١٨هـ.

* الشريعة للآجري، شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية.

للشيخ/ محد خليل هراس، والشيخ/ عبد الرزاق عفيفي.

* الرد على الجهمية والزنادقة، الإمام أحمد بن حنبل.

* التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، للملطي.

* الإيمان وسننه، لابن سلام، تحقيق: الألباني.

* الإيمان، لأبي بكر بن أبي شيبة.

* الإيمان، لابن تيمية، ومختصره لمحمد بن عبد الوهاب.

* شعب الإيمان، للبيهقي، ومختصره للقزويني.

* مقالات الإسلاميين، للأشعري.

* الإبانة عن أصول الديانة، للأشعري.

* أصول أهل السُّنَّة والجماعة، المسماة برسالة أهل الثغر، تحقيق: د/ محمد السيد الجليند.

* الرد على الجهمية، للإمام البخاري، وله: خلق أفعال العباد.

* التوحيد، لابن منده.

* لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، السفاريني.

* مجموعة الرسائل الكبرى، ومنها: الواسطية، ابن تيمية.

* اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، ابن القيم.

❊ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم.

❊ شرح السُّنَّة، للإمام البربهاري،

❊ الإسلام يتحدى، ترجمة: د/ عبد الصبور شاهين، وحيد الدين خان،

❊ كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي.

❊ التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي.

❊ شرح العقيدة السفارينية، للإمام العثيمين.

❊ عقيدة المؤمن، للشيخ الجزائري.

❊ الميزان بين السُّنَّة والبدعة، د/ محمد عبد الله دراز.

❊ موقف الإمام ابن تيمية من قضية التأويل، للدكتور/ الجليند.

❊ النبأ العظيم، للدكتور/ محمد عبد الله دراز.

❊ إسلامنا، العقائد الإسلامية، الشيخ/ سيد سابق.

❊ نظام الإسلام: العقيدة والعبادة، محمد المبارك.

❊ الرسالة الخالدة، عبد الرحمن عزَّام.

❊ الإسلام، د/ أحمد شلبي.

❊ روح الدين الإسلامي، الإسلام والنظام العالمي الجديد، عفيفي عبد الفتاح طبارة.

❊ الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، د/ محمد يوسف موسى.

❊ هذا ديننا، الشيخ/ محمد الغزالي.

❊ تعريف عام بدين الإسلام، الشيخ/ علي الطنطاوي.

❊ العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم، الشيخ/ محمد أبو زهرة.

❊ منهج القرآن الكريم في إثبات العقيدة الإسلامية، د/ رؤوف شلبي.

❊ الفرق الإسلامية وأصولها الإيمانية، جزآن، د/ عبد الفتاح فؤاد.

❊ منهج السلف بين العقل والتقليد، د/ محمد السيد الجليند.

❊ (الإيمان) حقيقته وأثره في النفس والمجتمع - أصوله وفروعه - مقتضياته ونواقضه، د/ محمد عبد الله الشرقاوي.

❊ الإسلام دين المستقبل، رجاء جارودي.

❊ الإسلام في الألفية الثالثة - ديانة في صعود، د/ مراد هوفمان.

ملحـــق ١

من خطبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين ولي الخلاف: صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«يا أيها الناس، إني داعٍ فأمنوا: اللهم إني غليظ فليِّني لأهل طاعتك بموافقة الحق ابتغاءَ وجهك والدار الآخرة، وارزقني الغلظة والشدة على أعدائك وأهل الدعارة والنفاق، من غير ظلم مني لهم ولا اعتداء عليهم، اللهم إني شحيح فسخِّني في نوائب المعروف قصدًا من غير سرف ولا تبذير، ولا رياء ولا سُمعة، واجعلني أبتغي بذلك الدار الآخرة، اللهم ارزُقْني خفضَ الجناح ولين الجانب للمؤمنين، اللهم إني كثير الغفلة والنسيان؛ فألهمني ذِكرَكَ على كل حال، وذكر الموت في كل حين، اللهم إني ضعيف عند العمل بطاعتك؛ فارزقني النشاط فيها، والقوة عليها بالنية الحسنة التي لا تكون إلا بعزتك وتوفيقك، اللهم ثبتني باليقين والبر والتقوى، وذكر المقام بين يديك، والحياء منك، وارزقني الخشوعَ فيما يرضيك عني، والمحاسبةَ لنفسي، وإصلاح الساعات، والحذرَ من الشبهات، اللهم ارزقني التفكيرَ والتدبُّر لما يتلوه لساني من كتابك، والفهم له، والمعرفة بمعانيه، والنظر في عجائبه، والعمل بذلك ما بقيتُ؛ إنك على كل شيء قدير»[١].



(١) د/ فاطمة محجوب، «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية»، (٣/ ٢١٠) - دار الغد العربي - ١٩٩٣م.

ملحـــق ٢

قال الإمام ابن القيم يدافع أهل السنة:

يا من يُشبُّ الحرب جهلًا ما لكم	بقتال حزب الله قطُّ يدان
أنّى تقوم جنودكم لجنودهم	وهُمُ الهداة وناصرو الرحمن
وجنودكم ما بين كذّاب ودجـ	ـال ومحتال وذي بهتان
من كل أرعن يدّعي المعقول وهـ	ـو مجانب للعقل والإيمان
أو كل مبتدع وجهمي غدا	في قلبه حرج من القرآن
أو كل من دان دين شيوخ أهـ	ـل الاعتزال البيّن البطلان
أو قائل بالاتحاد وإنه	عين الإله وما هنا شيئان
أو من غدا في دينه مُتحيّرًا	أتباع كل ملدد حيران
وجنودهم جبريل مع ميكال مع	باقي الملائك ناصري القرآن
وجميع رسل الله من نوح إلى	خير الورى المبعوث من عدنان
فالقلب خمستهم أولو العزم الأولى	في سورة الشورى أتوا ببيان
في أول الأحزاب أيضا ذكرهم	هم خير خلق الله من إنسان
ولواؤهم بيد الرسول محمد	والكل تحت لواء ذي الفرقان
وجميع أصحاب الرسول عصابة الإ	سلام أهل العلم والإيمان
والتابعون لهم بإحسان على	طبقاتهم في سائر الأزمان
أهل الحديث جميعهم وأئمة الـ	ـفتوى وأهل حقائق العرفان
العارفون بربهم ونبيهم	ومراتب الأعمال في الرجحان
صوفية سنية نبوية	ليسوا أولي شطح ولا هذيان[1]

---

(١) من القصيدة النونية والميمية للعلامة ابن القيم، نقلًا عن (د/ فاطمة محجوب)، «الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية»، (ص٢١٥) ط. دار الغد العربي، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

المحتويات

